القرآن
في منهاج الطائفة المنصورة
(الجزء الثاني)

الطبعة الأولى
١٤٣٤ هـ / ٢٠١٣م

منشورات الدَّعوَة السَّلَفيَّة
كتاب رقم (١٠٩) جديد

القرآن
في منهاج الطائفة المنصورة
(الجزء الثاني)

حلقات علميَّة في تفسير القرآن
على منهاج النبوَّة والسَّلَف

تأليف:
هشام بن فهمي العارف

القدس ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

المحتويات

٨ . أحْسَنُ القول : القرآن والسُّنَّة . . . . . .
٩ . القرآن ميَسَّرٌ للذِّكر . . . . . .
١٠ . القرآن إنذارٌ وتذكارٌ . . . . . .
١١ . القرآن إعذار وإنذار . . . . . .
١٢ . الدَّمار على من أهمل الإنذار . . . . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمَة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛

الدعوة السلفية المبنية على نصوص الكتاب العزيز، والسنة الصحيحة، وفقه السلف الصالح هي خير مثال، وأحسن اقتداء بنبينا المصطفى ﷺ.

وإن الأحزاب الضالة والشعارات المصنوعة بهتاناً وزوراً؛ هي التي أساءت أولاً لنبينا محمد ـ صلّى الله عليه وآله وسلم، وبالتالي شجعت الكفرة ومن نحى نحوهم أن يصل بهم الحال إلى الجهار في الطعن بدين الله، والجهار في الطعن بأنبيائه، وملاحقة اوليائه ظلماً وعدواناً.

وما هذا الظلم، ولا هذه الإساءة للدعوة السلفية إلا بسبب أن هذه الدعوة انتهجت منهج الأنبياء والرسل، وحضَّت الناس أجمعين وخاطبتهم بخطاب الأنبياء والرسل فقالت: ارجعوا إلى كتاب ربكم على هدي نبيكم محمد ﷺ ارجعوا إليهما بفهم ومنهج وفقه صحابته ـ رضوان الله عنهم ـ.

فالدعوة السلفية دعوة الأنبياء، ودعوة المرسلين، ودعوة الحق، وهي حجَّة

على كلّ من يخالفها في هذه البلاد وفي غيرها.

والدعوة السلفية جاءت بالبصيرة التي جاء بها الله عزّ وجلّ وجاء بها نبيه محمد ﷺ وجاء بها الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ وجاء بها التابعون بإحسان لهم جميعاً.

والدعوة السلفية تأمر الناس كما أمر الله عزّ وجلّ، وكما أمر النبي المصطفى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ لذلك فهي أحسن رد وخير رد على كل من يسيء إلى شخص المصطفى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ وإلى كلّ من يسيء إلى منهاجه في بيان الحق، وإلى كل من يسيء إلى صحابته، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والدعوة السلفية جاءت بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، جاءت لتقول لجميع الأحزاب كفى، جاءت لتقول لجميع الشعارات اسقطي، جاءت الدعوة السلفية من جنبات المسجد الأقصى المبارك.

جاءت الدعوة السلفية لتقول مؤكدة على مقالة الأنبياء أجمعين منذ عهد إبراهيم إلى إسراء محمد ﷺ. أنه لا معبود بحق إلا الله، فهل تفيق المجتمعات على شتى ألوانها وأجناسها إلى هذه الدعوة؛ وينضبط الجميع إلى أحكام دين الله الإسلام؟ فيتركون الكفر والشرك، ويتركون الضلالات، والخزعبلات، ويتركون البدع والمبتدعات، ويتركون الكذب والتلبيس والمداهنات.

جاءت الدعوة السلفية بالحجة لتقول للناس: تعلَّموا كتاب الله، واقرؤوا كتاب الله، فالدعوة السلفية قائمة على العلم، وعلى الوضوح، وعلى البيِّنة. فحين يتعلم الناس ويكونوا على بصيرة من دينهم: يعرفون التوحيد معرفة حقّة؛ ويعبدون الله عبادة حقّة؛ ويفهمون معنى لا إله إلاَّ الله فهماً صحيحاً؛ بعدئذ فإنهم على خطى النبيّ المصطفى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ في اتباع الحق،

وعلى خطى الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ في الهدى والنور والعزة.

والدعوة السلفية منهاجها رباني تنذر الناس أجمعين أن لا يتركوا توحيد ربّهم.

والدعوة السلفية تأخذ بالأسباب الصحيحة لدعوة الناس إلى الحق، والدعوة السلفية على منهاج ربّها تطيع ربها ولا تطيع المكذّبين، وتصبر على مقالة الحسّاد من المبتدعة والمنافقين والضّالين والكفرة والكذبة.

إن هؤلاء الحسّاد وصفوا نبينا المصطفى ـ صلّى الله عليه وآله وسلم ـ بالجنون، وما من أحد من أهل العلم خط مخطوط الرسل والأنبياء في الدعوة إلى الله إلا وصف بما وصفوا به بسبب نعمة الله عليهم، وردَّ الله على من تعدى عليهم بأقوى ردٍّ وأحسن جواب فقال في سورة القلم:

١- ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(٢)﴾

وحثَّه على الاستمرار في الدعوة إلى الله واحتمال الأذى فقال في سورة الطور:

٢- ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ(٢٩)﴾

والسلف كما تعلمون هم: نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ وصحابته ـ رضوان الله عنهم ـ على رأسهم أبو بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب.

فلا مكان للأحزاب، ولا مكان للأفكار الباطلة، ولا مكان للشيعة ومن تحالف معهم، ولا مكان للخوارج التكفيريين ومن تحالف معهم، ولا مكان للصوفيين ومن دروش معهم، ولا مكان للمنافقين الذين يتقنون التلوَّن والتلبّس، لا مكان لأحد منهم مهما كان جمعه، أياً كانت قوته، أياً كانت مستنداته المخالفة المشاكسة الضالة عن هدي محمد ﷺ، أياً كانت شعاراته الكذَّابة البرّاقة التي يتاجر بها ويقامر عليها.

فعلى من انتهج منهج الأنبياء والرسل أن يعلم أنه ملاحق بالأوصاف الجبانة المهزومة التي كان يرددها الحسّاد والضلاّل والمغضوب عليهم لأنبيائهم ورسلهم، وملاحق بالأفعال الشنيعة السيئة، وملاحق بالأذى أينما حلَّ وأينما ارتحل، قال تعالى:

٣- ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ(٨)﴾[سورة البروج]

لأنهم حملوا لواء السنة، وحملوا لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحملوا لواء الجرح والتعديل، وحملوا الحق الذي يفر منه كل خبيث.

وإذا كان نبينا محمد ﷺ وهو أشرف الخلق؛ وصفه الفجرة الذين كذَّبوه بالجنون، كما قال تعالى:

٤- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧)﴾[سورة الصافات]

ثم لثباته على منهاج الرب ـ عز وجل ـ وامتناعه عن المداهنة ما لبثوا أن وصفوه بالساحر الكذاب، قال تعالى:

٥- ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٤)﴾ [سورةص]

تماماً كما طعنوا بأول نبي أرسل قال تعالى:

٦- ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ(٩)﴾[سورة القمر]

وطعنوا بصالح ـ عليه السلام ـ

٧- ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ(٢٥)﴾[سورة القمر]

وبالجنون والسحر والكذب طعنوا بموسى ـ عليه السلام ـ قال تعالى :

٨- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ(٢٤)﴾[سورة غافر]

وقال تعالى :

٩- ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٣٩)﴾[سورة الذاريات]

وهكذا اتفق كل أعوان الباطل والفجور ـ عبر التاريخ ـ في وصف الأنبياء والرسل ومن سار بدربهم وانتهج منهجهم بالجنون والسحر والكذب، قال تعالى :

١٠- ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(٥٢)﴾ [سورة الذاريات]

قال العلماء :

١١- «**وهذا يدل على أنهم إنما اتفقوا لأن قلوبهم تتشابه في الكفر والطغيان، فتشابهت مقالاتهم للرسل لأجل تشابه قلوبهم**» .

وقد أوضح الله هذا المعنى بقوله :

١٢- ﴿كَذَلِكَ قَالَ الذين مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ . .(١١٨)﴾ [سورة البقرة]

ونظيره قوله تعالى :

١٣- ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣)﴾[سورة الذاريات]

فعلى السلفيين في كل مكان ألا يلتفتوا إلى هذه الترّهات والتخرُّصات، ولا إلى هذه الطعونات الفاجرة اللئيمة، بل عليهم أن يستمروا في

تذكير الناس بالحق، ويعالجوا مشاكلهم في الضعف الديني، ويعينوهم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

إن الأذى الذي يلحقه الكفرة وأعوانهم من الفجرة بالمؤمنين لا تقف حدوده عند الطعونات والمقالات المنحطَّة، بل يتعدى في غالب الأحوال إلى الأذى الجسدي بعد الأذى النفسي، وإلى أنواع من التضييق من أجل ألا تصل كلمة الحق **(لا إله إلا الله)** وهي كلمة الإخلاص، وكلمة التقوى، وكلمة الإحسان، وكلمة العدل، وكلمة الصدق، والصراط المستقيم، والعروة الوثقى، إلى الناس فينعموا بعد معرفتها والإيمان بها بحياة سعيدة في الدنيا والآخرة.

فمن أجل الدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك لقي الأنبياء والرسل الأذى، واحتملوا هم وأتباعهم في سبيل الله ما تعرضوا له من التعذيب النفسي والجسدي، فما كان منهم إلا أن صبروا، وقد أخبر الله تعالى بمواقف الأنبياء والرسل في كتابه العزيز، لنتعلم أن الدعوة إلى الله على بصيرة تؤتي أكلها ولو بعد حين، وعلينا أن نتذكر أن من شروط قبولها عند الله الصبر، قال تعالى في سورة هود:

١٤- ﴿. . **فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ **(٤٩)**

قال القاضي أبو محمد:

١٥- «**أي فاجتهد في التبليغ، وجد في الرسالة، واصبر على الشدائد، واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة**».

وقال تعالى في سورة آل عمران:

١٦- ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦)**﴾

فأنت ترى أخي المسلم إذا عبدت الله حق العبادة، وانتهجت منهج السلف والصحابة، تلقى الذي لقيه من أنعم الله عليه بالصراط المستقيم، ويكفيك عزّاً أنك تلقى الذي لقيه الأنبياء والمرسلين، بينما تجد المناوئين لك في صف المغضوب عليهم والضالين، في الأسفلين خزايا مفتونين.

قال تعالى في سورة الأحزاب:

١٧- **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾**

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

١٨- **«إن موسى كان رجلا حييا ستيراً، لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فآذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده؛ إما برص، وإما أدرة، وإما آفة.**

وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوما وحده فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها. وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبي حجر! ثوبي حجر! حتى انتهى إلى ملإ من بني إسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وأبرأه مما يقولون، [قالوا والله ما بموسى من بأس] وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوا الله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا فذلك قوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا)». [1]

فبيَّن الله عز وجل أنه لا يجوز لأحد إيذاء النبي محمد ﷺ فمن آذاه صار

(١) "أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٣٠٧٥)

إلى مصير من آذى موسى ﷺ.

فلا تكونوا مع نبيكم كما كانت العصاة والفجرة من بني إسرائيل مع أنبيائهم، ولا تكونوا مع علمائكم كما كانت العصاة والفجرة من بني إسرائيل مع علمائها.

احترموا نبيكم، واحترموا العلماء فيكم، ومن الاحترام ألا تغلوا في نبيكم، ولا تغلوا في علمائكم ومشايخكم.

ولم يتوقف إيذاء بني إسرائيل لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ عند الإيذاء الشخصي، بل تجاوز إلى ما هو أكبر منه، وهو الإيذاء المعنوي العلمي الحججي بالطعن في رسالته ونبوته والإتيان بالشبهات، وهذا يعني الطعن في دين الله تعالى، ومن سوء صنيعهم المماثل لصنيع الفجرة الفتانين المنافقين المتلونين في أيامنا السعي لإفساد الناس، وإبعادها عن دين الله، وتشويه سمعة الداعية إلى الله على بصيرة، لغيظهم وحسدهم له لأنه على منهاج النبوة والسلف، ولأنه مع كل من يحمل لواء الجرح والتعديل بحق.

وقد بيّن الله تعالى سوء صنيعهم هذا في تفريق الصف بالنميمة والتشغيب على أهل الحق فقال في سورة الصف:

٢٠- ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)**﴾ [سورة الصف]

فلما اختاروا بمحض إرادتهم البعد عن منهج النبوة والسلف، واختاروا الصدَّ عن سبيل الله، أعقبهم الله بأن أمال قلوبهم عن الحق فزاغت عن الهدى، وصاروا في صف الباطل وأعوانه. وهذا مصير الخوارج الذين

خرجوا بمحض إرادتهم وطواعية لنفوسهم الخبيثة ومن شابههم من أهل البدع والضلاّل.

٢١- ﴿. . . فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٥)﴾ [سورة الصف].

والحمد لله الذي ينعمته تتم الصالحات

اللهم عد علينا برأفتك ورحمتك

اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا

وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا.

وأسألك ربي أن تجعل عملي هذا خالصاً لوجهك

وأسألك أن تقبله

وكتب هشام بن فهمي العارف

من عقر دار المؤمنين - القدس

٥/ ١١/ ١٤٣٤هـ

وفق ١١/ ٩/ ٢٠١٣ م

(٨)

أحْسَنُ القول: القرآن والسُّنَّة

وصف الله تعالى كتابه العزيز «القرآن» بـ (الْمَجِيدِ): لعظمته، وسعته، وكرمه، وبركة فائدته، فقال في سورة البروج:

١- ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١)﴾

ولمّا كان التذكير ضرورة وحاجة للناس في كل وقت، سمّى الله تعالى القرآن ذكراً وجعله نعمة عظيمة على البشرية؛ وأقسم به فقال:

٢- ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١)﴾

فالناس بحاجة إلى القرآن في أمور دينهم ودنياهم أكثر من حاجتهم للطعام والشراب، بل هم في حاجة إليه في أدقِّ أشيائهم، لكنهم ـ للأسف ـ أهملوه وهجروه على الرغم مما اشتمل عليه من ذكر آلائه سبحانه، وما فيه من المواعظ التي تلين بها القلوب. وأي عزةٍ أو مجد يسعون إليه وهم في شقاق عظيم مع القرآن العظيم؟!

وكما ابتدأ الله تعالى افتتاحية «سورة ص» بأن أقسم بالقرآن ذي الذكر، ابتدأ افتتاحية «سورة ق» بأن أقسم بالقرآن المجيد، فقال:

٣- ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١)﴾

لكن الذي منع الكفار من الانتفاع به هو: الاستكبار والمشاقَّة وليس لأنه مقر التذكُّر والذكرى، فإنهم يعلمون ذلك لكن الذي منعهم التكذيب، كما قال تعالى في سورة «ق»:

٤- ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)﴾ والتعجب سببه التكذيب والامتناع عن اتباع الحق بعد أن علموا ما للقرآن من قدر عظيم وشرف. فقوله تعالى: (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ) ردٌّ على الكفّار والمشركين الذين أرادوا إبطال القرآن بحقدهم وحسدهم وتعجُّبهم. فما كان لهذا التعجب من سبب إلاَّ لأنهم حسدوه، ومن ثمَّ كذَّبوه، فعجبهم قائم على اختصاصه من بينهم برسالة الله وأن يتميَّز عنهم بهذه الخاصيّة الشريفة.

فالقرآن مجيد، بمعنى: رفيع في علوِّ شأنه، كريم فيما يعطي من حكمه، وفيما يرجى من خيره، لا كما يدَّعي المشركون أنه سحر يؤثر، أو أنه قول البشر، إلى غير ذلك من الادِّعاءات الفاشلة.

واختص الله تعالى القرآن دون سائر الكتب السماوية بعدة أسماء تدل على رفعة علوِّه ورفعة شأنه، منها: الكتاب، والذكر، والمجيد، والفرقان، كما وصفه بعدة أوصاف منها: أنه فصل، كما قال تعالى:

٥- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤)﴾[سورة الطارق]

قال الإمام البخاري:

٦- «**قال ابن عباس: ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾: الحق**»[1].

فالقرآن قول فصل، بمعنى: أن حُكمه حق وفصل، لأنه يفصل بين الحق والباطل، ونفى أن يكون بالهزل، أي: ليس القرآن بالباطل واللعب لأنه كله حقٌّ وجِدٌّ. وهذا من تمام الوصف، قال الحافظ ابن حجر:

٧- «**والمراد بالحق: الشيء الثابت الذي لا يزول**»[2].

فالقرآن بعد ظهور قوَّة حججه وبيِّناته ووضوحه حقَّ أن يطلق عليه لعراقته

(١) "صحيح البخاري" كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يريدون أن يبدِّلوا كلام الله).
(٢) "فتح الباري"(١٣/٤٧٥).

في التفريق بين الحق والباطل «فصل» لأنه حق. قال ابن تيمية -رحمه الله:

٨- «**وهذا إنما يكون بالبيان**»[١].

ومن البيان أن يصل القول إلى القوم واضحاً لا لبس فيه، كما قال تعالى:

٩- ﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١)**﴾[سورة القصص]

أي: أكثرنا القول موصولاً بعضه ببعض، بمعنى: أنزلنا القرآن متواصلاً متتابعاً واضحاً بيِّناً ليس جملةً واحدةً، فكلما نزل على النبي ﷺ نجم من القرآن وصَّلناه بنجم آخر حسبما تقتضيه الحكمة، فيكون ذلك أدعى للجميع أن يتناولوا هدايات الله بتؤدة ويكونوا على علم وبيِّنة بأخبار الأولين وبما حلَّ بهم من نقمة الله تعالى لمّا كذَّبوا رسل الله وأنكروا توحيد الله عز وجل، وقوله تعالى: ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ ليكون ذلك أقرب إلى تذكُّرهم وتعقُّلهم وتدبُّرهم رحمة بهم ولطفاً.

فالمقصود من الآية الكريمة: الدعوة للتواصل مع القرآن، ومتابعته لحظة بلحظة للتذكُّر والاعتبار، فالحجة تظهر للناس شيئاً فشيئاً وبها يكون السامع الحاضر المتدبِّر الحي على بيِّنة عند التعامل مع المستجدات والحوادث الواقعة. فمن عمل بطاعة الله على بيِّنة نال رحمة الله ونجى من العذاب.

وجاءت هذه الآية الكريمة في سورة «القصص» لأن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجل أن ينتفع المعتبرون، وأما غيرهم فلا يعبأ اللّه بهم، وليس لهم منها نور وهدى. لذا امتدح الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه فقال:

١٠- ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ (١٨)**﴾[سورة الزمر]

---

(١) "فتح الباري"(١٣/٤٧٥).

وأحسن القول وأرشده قول الله وقول نبيِّه محمد ﷺ. فإنهم إذا سمعوا القرآن وغير القرآن اتبعوا القرآن، فقوله تعالى: ﴿**فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ قال الراغب الأصفهاني في «المفردات»:

١١- «**الأبعد عن الشبهة**».

وقال ابن كثير -رحمه الله-:

١٢- «**أي: يفهمونه ويعملون بما فيه**».

ومن صفات الذين ينتفعون بالقرآن تمسُّكهم به وبالسنة، واستجابتهم للحق، ففي الآية الكريمة إشارة إليهم وأن الله تعالى هداهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أصحاب عقول زاكية. فإنهم لمّا ابتلوا بالقول ميَّزوا بين ما ينبغي إيثاره مما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسن القول ويعملون به، وأحسنه على الإطلاق كلام اللّه وكلام رسوله.

قال الإمام الطبري -رحمه الله-:

١٣- «**فبشر يا محمد عبادي الذين يستمعون القول من القائلين، فيتبعون أرشده وأهداه، وأدلَّه على توحيد الله، والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد، ولا يهدي إلى سداد**».

وقال العلاّمة السعدي -رحمه الله-:

١٤- «**لما أخبر عن هؤلاء الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب؟ قيل: نعم، أحسنه ما نص اللّه عليه في السورة:**

١٥- ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ . .(٢٣)**﴾

أما غيرهم فإنهم لَمَا تركوا الانتفاع بالقرآن خلطوا فضلّوا عن اتباع الأحسن من القول. لأن المراد بالأحسن: البالغ في الحسن مطلقًا، وقد أطلق الله تعالى على القرآن اسم الحديث، وكذلك فعل النبي في خطبه فإنه كان ﷺ

يستهلُّها بقوله:

١٦- «**أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيث كِتَابُ اللَّه، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالةٌ** . . الحديث»[1].

وفي رواية الإمام أحمد بلفظ:

١٧- «»**إن أحسن الحديث كتاب الله** . . الحديث».

قال الإمام ابن كثير -رحمه الله-:

١٨- «**هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزَّل على رسوله الكريم**».

فالقرآن الكريم لا نهاية لحسنه ولا غاية لجمال نظمه وملاحة معانيه، وهو أحسن مما نُزِّل على جميع الأنبياء والمرسلين وأكمَلُ وأكثرُ إحكاماً.

وافتتاح الآية باسم الجلالة (**اللَّهُ**) يؤذن بتفخيم أحسن الحديث المنزَّل بأن منزِّله أعظم عظيم. وأشارت الآية الكريمة بهذا الافتتاح إلى اختصاص الله تعالى بتنزيل القرآن.

إن ترك اتباع الأحسن من القول يباعد بين الحق والاستجابة له، ويُدخل على غير المنتفع من القرآن أقوالاً يتعلّق بها؛ يراها في كثير من أحيانه هي الحسنة، فيقدِّمها على قول الله ورسوله! فمن ترك القول الأحسن «القرآن» ضلَّ عنه، قال الشنقيطي -رحمه الله-:

١٩- «**ولا شك أن كتاب الله وسنة رسوله أحسن من آراء الرجال**».

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٢٠- «**يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه (أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) على الإطلاق، فأحسن الحديث**

كلام اللّه، وأحسن الكتب المنزَّلة من كلام اللّه هذا القرآن، وإذا كان هو

---

(١) أخرجه الإمام مسلم.

الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني، لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابها في الحسن والائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبَّره المتدبِّر، وتفكَّر فيه المتفكِّر، رأى من اتفاقه حتى في معانيه الغامضة ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضع».

والذين قدَّموا أقوالاً على القرآن والسُّنَّة وصفهم النبي ﷺ بأقماع القول وتوعَّدهم بقوله:

٢١- «**ويل لأقماع القول**»[1].

والأقماع: جمع قَمِع، وهو الإناء الذي يترك في رؤوس الظروف لتملأ بالمائعات من الأشربة والأدهان. ففي الحديث إشارة إلى شدَّة هلَكَة من لا يعي التذكرة من القرآن، قال في «النهاية»:

٢٢- «**شَبَّه أسْماع الذين يَسْتمعون القَوْلَ ولا يَعُونه ويَحْفظونه ويَعْملون به، بالأقماع التي لا تَعِي شيئاً مما يُفرغ فيها فكأنه يَمّر عليها مَجازاً كما يَمُرّ الشَّراب في الأقْماع اجْتيازاً**».

وقال ابن رجب -رحمه الله-:

٢٣- «**وأقماع القول: الذين آذانهم كالقِمَع يدخل فيه سماع الحق من جانب ويخرج من جانب آخر لا يستقر فيه**»[2].

وقد عاب الله على الأقماع فقال:

٢٤- ﴿**قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)**﴾[سورة المؤمنون]

بنى الله تعالى آياته للمفعول ﴿**تُتْلَى عَلَيْكُمْ**﴾، لأن عظمتها التي استحقت

---

(١) أخرجه البخاري في "الأدب المفرد"، وأحمد، وغيرهما، وهو في "السلسلة الصحيحة"(٤٨٢).

(٢) "فتح الباري" (١/١٨١).

بها الإضافة إليه تكفي في الحث على الإيمان بمجرد سماعها، فكنتم على أعقابكم ترجعون القهقرى ! وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: متكبِّرين على الناس بالبيت الحرام. وقوله: ﴿سَامِرًا﴾ أي: سامرين، نقل القرطبي قول الأعمش:

٢٥- «**إذا رأيت الشيخ ولم يكتب الحديث فاصفعه فإنه من شيوخ القمر؛ يعني يجتمعون في ليالي القمر فيتحدثون بأيام الخلفاء والأمراء ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة**».

وقال -رحمه الله- في «الجامع لأحكام القرآن»(١٢/ ١٣٦):

٢٦- «**والضمير في (بِهِ) قال الجمهور: هو عائد على الحرم أو المسجد أو البلد الذي هو مكة، وإن لم يتقدم له ذكر لشهرته في الأمر؛ أي: يقولون: «نحن أهل الحرم فلا نخاف». وقيل: المعنى أنهم يعتقدون في نفوسهم أن لهم بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على الناس والمنازل؛ فيستكبرون لذلك، وليس الاستكبار من الحق**».

ثم قال:

٢٧- «**والمعنى: أنهم يفتخرون بالحرم، ويقولون: نحن أهل حرم الله تعالى**»!

وإلى هذا المعنى ذهب العلاّمة الشيخ السعدي -رحمه الله- فقال:

٢٨- «**تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا** وأعلى»!

ومعنى ﴿تَهْجُرُونَ﴾: أي: تقولون الكلام القبيح في هذا القرآن، والهُجْر أنهم كانوا يسُبّون النبي ﷺ ويصفونه بالساحر، والمجنون، والكذّاب، والشاعر، إذا خَلَوا حوْل البيت ليلاً.

ومن هذا القبيح ـ اليوم: أنكم (يا دعاة الضلالة !) تتخذون من إعراضكم عن الحق والدعوة السلفية في بيت المقدس مادة للسخرية والتهكُّم، فهلاَّ آن أوانكم للتفكر والتدبُّر؟ لذا قال تعالى في الآية التالية:

٢٩- ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ . . . (٦٨)﴾

قال الشنقيطي -رحمه الله-:

٣٠- «**يتضمن حضَّهم، على تدبُّر هذا القول الذي هو القرآن العظيم، لأنهم إن تدبَّروه تدبُّراً صادقاً، علموا أنه حق، وأن اتباعه واجب وتصديق من جاء به لازم**».

لكنهم أنكروه وأعرضوا عنه، قال ابن القيم -رحمه الله-:

٣١- «**فإن كل من تدبَّره أوجب له تدبُّره علماً ضرورياً، ويقيناً جازماً أنه حق وصدق، بل أحق كل حق، وأصدق كل صدق، وأن الذي جاء به أصدق خلق الله وأبرُّهم وأكملهم علماً وعملاً ومعرفةً**».

فدلَّت الآية الكريمة على أن تدبُّر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، لكن الذي منعهم من التدبّر إصرارهم أن تبقى قلوبهم مقفلة اتجاه بعثة الحق الذي جاء بها محمد -عليه السلام- وكذلك اتجاه كل بعثة مجددة لدين محمد ﷺ، قال تعالى في سورة محمد:

٣٢- ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾

استفهام إنكار، بمعنى: أيعرضون عن القرآن، ليضرب الله تعالى بعد ذلك على إعراضهم ببيان سببه وهو: أن قلوبهم عليها أقفال لا تنفتح لخير بتاتاً، ولا تنفتح لفهم القرآن أبداً، بسبب ما ارتكبوه من حماقات، على رأسها:

١. إيثارهم الهوى على الهدى.

٢. وبعدهم عن التدبُّر الصادق لكتاب الله.

٣. وإصرارهم على عدم التذكُّر.

فتكون (أَمْ) بمعنى: بل، فمن ترك التفكر والتدبّر للقرآن فكأنه جعل على قلبه قفلاً يستحيل فتحه من غير الإقبال على القرآن لتعلّم ما فيه، وفهم مراد الله تعالى منه. قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٣٣- «أي: فهلاَّ يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأمَّلونه حق التأمل، فإنهم لو تدبَّروه، لدلَّهم على كل خير، ولحذَّرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيَّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرَّفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهَّبهم من العقاب الوبيل».

(٩)

القرآن ميَسَّرٌ للذِّكر

القرآن كلُّه ميسَّر بتيسير الله، فهو كتابٍ عظيم سهل، سهّل الله لفظه للتلاوة والحفظ، وسهَّل معانيه للفهم، فمن ادَّعى أنه يصعب عليه تلاوة القرآن، أو أنه لا يفهمه، وأن القرآن عسير عليه فهمه، أو عسير عليه العمل به، فعليه أن يراجع نفسه، ويتدارك مصيبته قبل فوات الأوان، وقبل انهيار سنوات عمره، فإن هذه الترَّهات التي أراد أن يجعلها علَّة لتقصيره وذريعة لتملّصه، تؤكد أنه محروم من الانتفاع بالقرآن. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

١- «**فَعُلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ مِمَّا يُمْكِنُ الْعُلَمَاءَ مَعْرِفَةُ مَعَانِيهِ، وَعُلِمَ أَنَّ مَنْ قَالَ: إنَّ مِنْ الْقُرْآنِ مَا لا يَفْهَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ وَلا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ إلاَّ اللَّهُ، فَإِنَّهُ مُخَالِفٌ لإِجْمَاعِ الأُمَّةِ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ**»[1].

فقوله تعالى في سورة القمر:

٢- ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)**﴾

دليل على أن الله تعالى يسَّر القرآن للتلاوة والفهم. والتيسير بمعنى التسهيل، فالقرآن سهل مُيَسَّر على المؤمنين لأنهم يقبلون عليه بخشوع، فهو مع ثقله إلاَّ أن الله تعالى خفَّفَه عليهم فأعانهم على القيام بأعبائه، ووفَّقهم للعمل

(١) "مجموع الفتاوى"(١٧/٤٢٣).

به، والله تعالى سهَّلَه على ألسنتهم لتلاوته، وعلى عقولهم لفهمه وتدبُّر معانيه.

وصيغة الجمع في قوله: ﴿**يَسَّرْنَا**﴾ دالة على العظمة، فالمتكلم بما له من الكبرياء والجبروت قادر على أن يُعجِز خلقه من جهة الفهم والحفظ والإتيان بمثل آية واحدة من القرآن، لكن لرحمته هوَّنه لينتفع المؤمنون بذكره، ويتحصَّلوا على رحماته.

والقرآن: الكلام المقروء المتلوّ. والتيسير واحدةٌ من بركاته وحِكَم تنزيله: ففي مرات متعددة يقول الله تعالى في سورة القمر: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ قال ابن القيم -رحمه الله-:

٣- «**وتيسيره للذكر يتضمن أنواعاً من التيسير: أحدها: تيسير ألفاظه للحفظ، الثاني: تيسير معانيه للفهم، الثالث تيسير أوامره ونواهيه** للامتثال، **ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن مَيَسَّراً له، بل كان مُعَسَّراً عليه**»[1].

ومعلوم أن الإعراض عن القرآن له دوافعه، ومن هذه الدوافع الاحتجاج بعدم الاستيعاب والفهم!! وكيف يكون الاحتجاج وقد أنزله الله فصيحاً فى ألفاظه، بليغاً فى تراكيبه، واضحاً فى معانيه، سهل الحفظ لمن أراد أن يحفظه، فهل من معتبر ومتعظ بقصصه، ووعده، ووعيده؟ فليس لأحد العذر في التنصل من عدم فهم كتاب الله تعالى، لأن الله تعالى قال: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ**﴾ قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٤- «**أي: ولقد يسَّرنا وسهَّلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقه معنىً، وأبينه تفسيراً،**

(١) "الصواعق المرسلة"(١/٣٣١).

فكل من أقبل عليه يسَّر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهَّله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العاملون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلَّها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾».

ولذلك كان شأن الرسول ﷺ حفظ القرآن عن ظهر قلب، وكان شأن المسلمين الاقتداء به في ذلك على حسب الهمم، وكان النبي ﷺ يشير إلى تفضيل المؤمنين بما عندهم من القرآن. وكان يوم أحد يقدم في لحد شهدائه مَن كان أكثرهم أخذاً للقرآن؛ تنبيهاً على فضل حفظ القرآن زيادة على فضل تلك الشهادة.

وقوله تعالى: ﴿**فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ**﴾ قال محمد بن كعب القرظي:

٥- «**فهل من منزجر عن المعاصي**»[1]؟

فتبيَّن أن الغاية من تيسير القرآن: الاعتبار، وتذكُّر ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه. فمن أراد أن يتذكَّر ويعتبر فإن الله تعالى هيأ كتابه العزيز للتلاوة، والحفظ، والذكر، والوعظ.

ويتبعها غايات أخرى كثيرة ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز، وذكرها النبي ـ عليه السلام ـ منها: تلاوته على الألسن، لقوله ﷺ:

٦- «**إن هذا القرآن أُنزل (وفي رواية: نزل) على سبعة أحرف، فاقرءوا و لا حرج (وفي رواية: فأي ذلك قرأتم أحسنتم)(وفي رواية: أصبتم) (وفي رواية:**

(١) نقله ابن كثير في "التفسير".

فاقرءوا ما تيسر منه)»[1].

قال الشيخ محمد صالح العثيمين -رحمه الله-:

٧- «**لأن الناس عرب من قبائل متعددة ولهجات مختلفة، وأنتم تعرفون أن الواحد إذا أراد أن يتكلم بلهجة غيره يصعب عليه ويشق عليه، فكان من رحمة الله عز وجل أن جعل القرآن على سبعة أحرف كل يقرأ بلهجته بقي على هذا في عهد النبي ﷺ كله، وفي عهد أبي بكر، وفي عهد عمر، في عهد عثمان صار الناس يقرءون على لهجاتهم فصار في هذا اختلاف، واللغة القرشية كانت غلبت على جميع اللهجات بعد أن تطور اللسان وصارت الدولة كل خلفائها من قريش، غلبت اللغة القرشية غلب حرف قريش على جميع اللهجات، فلما خاف أمير المؤمنين عثمان-رضي الله عنه-أن يختلف الناس في كلام الله وأن تؤدي هذه الأحرف السبعة إلى شقاق ونزاع أمر-رضي الله عنه-أن يوحَّد القرآن على حرف واحد، ألا وهو حرف قريش، أي: لغة قريش، فجمع القرآن على حرف واحد على لغة قريش وهو الذي نقرأ به الآن، ثم أمر بسائر المصاحف فأحرقت لئلا تبقى فيفتتن الناس بها، فكان في ذلك مصلحة عظيمة وفضيلة لأمير المؤمنين عثمان-رضي الله عنه-لا توصف فنسأل الله تعالى أن يجزيه عن المسلمين خيراً**»[2].

ومن بركاته وتيسيره وحِكَم تنزيله: تبشير المتقين، وإنذار الخصوم الأَلَدَّاء المجرمين، وهم الكفرة، كما قال تعالى:

٨- ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً(٩٧)**﴾[سورة مريم]

---

(١) أخرجه الطبري في "التفسير"، وأحمد، مرفوعاً عن أبي هريرة، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١٢٨٧) و (١٥٢٢)، وأخرجه الإمام البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن عمر بن الخطاب مرفوعاً.

(٢) "شرح رياض الصالحين" محمد صالح العثيمين (ص:١١٤٠).

فأخبر الله عز وجل في الآية الكريمة عن نعمته، وأن الله يسَّر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسَّر ألفاظه ومعانيه، ولغة النبي المصطفى ﷺ العربية، فإن القرآن نزل بلغة العرب أفضل اللغات وأفصحها كما قال:

٩- ﴿**وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا . . .(١١٣)**﴾[سورة طه]

يعني: لا عجمة فيه، فهو جارٍ في ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب، ليكون سهلاً عليهم فهمه والانتفاع به. مما جعله أفضل من غيره من الكتب في هذا الباب. وقوله تعالى في سورة الشعراء:

١٠- ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)**﴾

إشارة إلى أن اللَّه أنزل القرآن على رجل عربي كأنه أفصح من نطق بالضاد، وهو محمد ﷺ، أنزله بلسان عربي مبين، قال ابن كثير -رحمه الله-:

١١- «**أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بَيِّنًا واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعذر، مقيمًا للحجة، دليلاً إلى المحجة**».

فسمعوه وفهموه لأنه بلغتهم، وفي ذلك قطع لعذرهم أن يقولوا: لسنا نفهم ما تقول. قال الطبري -رحمه الله-:

١٢- «**وإنما هذا تقريع لهم، وذلك أنه تعالى ذكره قال:**

١٣- ﴿**وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ(٥)**﴾[سورة الشعراء]

ثم قال -رحمه الله-:

١٤- «**لم يعرضوا عنه لأنهم لا يفهمون معانيه، بل يفهمونها، لأنه تنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين بلسانهم العربيّ، ولكنهم أعرضوا عنه تكذيباً به**

واستكباراً كما قال تعالى:

١٥- ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦)﴾». أ.هـ

بل عليهم أن يفهموه ويعقلوه كما قال تعالى:

١٦- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢)﴾ [سورة يوسف]

أي: لعلكم أيها المكلفون بالإيمان به، تعقلون معانيه، وتفهمون ألفاظه، وتنتفعون بهداياته، وتقبلون عليه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

١٧- «فَإِنَّمَا مَدَحَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَى مَنْ كَانَ لَهُ عَقْلٌ. فَأَمَّا مَنْ لاَ يَعْقِلُ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَحْمَدْهُ وَلَمْ يُثْنِ عَلَيْهِ وَلَمْ يَذْكُرْهُ بِخَيْرٍ قَطُّ»[1].

فليس لهم الاحتجاج بأنه صعب عليهم، فلو أن الله تعالى أنزله بلسان أعجمي أو بلغة أعجمية لتعللوا بعدم فهمه وقلة إدراكهم لمعناه. والله سبحانه وتعالى امتنَّ عليهم فأنزله:

١٨- ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨)﴾ [سورة الزمر]

وقد سمّى الإمام البخاريّ -رحمه الله- باباً في كتاب فضائل القرآن من «صحيحه» هو:

١٩- «باب نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا (. .) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾

قال أبو بكر بن الطيب الباقلاني:

٢٠- «ومعنى قول عثمان: فإنه نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره»[2].

ومقصوده أن القرآن لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، ولا لبس، بل هو بيان، وكلُّه وضوح وبرهان، وإنما جعله الله عز وجل كذلك، وأنزله بذلك،

---

(١) "مجموع الفتاوى"(١٠/٤٣٦).

(٢) نقله ابن بطال في شرحه على صحيح البخاري (١٠/٢١٩).

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يحذرون مخالفة ما جاء فيه.

ولّما كان القرآن ميسَّراً لا اعوجاج فيه، فإن آياته فصِّلت، بمعنى: بُيِّنت معانيه وأحكمت أحكامه، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق. كما قال تعالى:

٢١- ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣)﴾[سورة فصلت]

وإطلاق اسم الكتاب على القرآن باعتبار أن الله أنزله ليُكتب، وأنَّ الأمة مأمورون بكتابته، والإخبار عن الكتاب بأنه قرآن مبالغة في كون هذا الكتاب مقروءاً، أي: ميسّراً لأنْ يُقرأ.

وتفصيل الكتاب ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ دون غيرهم إشارة إلى حصر الانتفاع بفوائد تنزيله فيهم دون غيرهم، فلا ينتفع به من أعرض عنه. وفي السورة ردَّ الله على الكفّار تضليلهم وكشف تعنّتهم فقال:

٢٢- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ.. (٤٤)﴾

فلو أن الله تعالى جعل القرآن أعجمياً لقالوا: كيف يكون القرآن أعجمياً ولسان الذي نزل عليه عربي؟

فالقرآن لفصاحته وقوة بلاغته وبيانه يليق بحال المنذرين الذين طُلب منهم أن يفهموه ويعقلوه، وأول من تناولهم في خطابه سكان مكة ابتداءً لأنه نزل بلغتهم العربية، ولأنهم أقرب الناس بالرسول ﷺ، ولو روعي فيه جميع الأمم المخاطبين بدعوة الإسلام لاقتضى أن ينزل بلغات لا تُحصى، فلا جرم اختار الله له أفضل اللّغات كما قال تعالى:

٢٣- ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا.. (٧)﴾ [سورة الشورى]

والقرآن العظيم أفضل كتاب أنزل من عند الله، أنزله الله بأفضل اللغات على وجه الأرض، ونزل به من السماء الدنيا أفضل الملائكة على أفضل

البشر. والله تعالى جعل القرآن ميسَّراً: ليسهل على الألسنة تلاوته، وعلى الصدور حفظه، وعلى القلوب فهمه وتدبّره.

وجعله ميسَّراً: لبيان معانيه وإحكام أحكامه.

وجعله ميسَّراً: للإقبال عليه بخشوع، والقيام بأعبائه بهمة ونشاط، والفوز ببركاته.

وجعله ميسَّراً: للذكر والاعتبار والاتعاظ بقصصه، ووعده، ووعيده.

وجعله ميسَّراً: لتبيشر المؤمنين، وإنذار الخصوم الألداء المجرمين.

وجعله ميسَّراً: لإقامة الحجة.

وجعله ميسَّراً: للانتفاع بهداياته وفوائده.

وجعله ميسَّراً: للحذر من مخالفته.

وجملة الذي تقدَّم جُمع في قوله تعالى:

٢٤- ﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٥٨)**﴾[سورة الدخان]

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٢٥- «**أي: إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحًا بينًا جليًا بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتفهَّمون ويعملون**».

وقال الشنقيطي -رحمه الله-:

٢٦- «**وبهذا تعلم أيها المسلم المنصف، أنه يجب عليك الجد، والاجتهاد في تعلم كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وبالوسائل النافعة المنتجة، والعمل بكل ما علمك الله منهما، علماً صحيحاً.**

ولتعلم أن تعلم كتاب الله وسنة رسوله في هذا الزمان، أيسر منه بكثير في القرون الأولى، لسهولة معرفة جميع ما يتعلق بذلك، من ناسخ ومنسوخ، وعام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومبين، وأحوال الرجال، من رواة

الحديث، والتمييز بين الصحيح والضعيف، لأن الجميع ضبط وأتقن ودوِّن، فالجميع سهل التناول اليوم.

فكل آية من كتاب الله قد علم ما جاء فيها من النبي ﷺ ثم من الصحابة والتابعين وكبار المفسرين.

وجميع الأحاديث الواردة عنه ﷺ حفظت ودوِّنت، وعلمت أحوال متونها وأسانيدها وما يتطرق إليها من العلل والضعف.

فجميع الشروط التي اشترطوها في الاجتهاد يسهل تحصيلها جداً على كل من رزقه الله فهماً وعلماً.

والناسخ والمنسوخ، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، ونحو ذلك تسهل معرفته اليوم على كل ناظر في الكتاب والسنة ممن رزقه الله فهماً ووفقه لتعلم كتاب الله وسنة رسوله».

ومن التضليلات التي يروِّج لها الكفار أن القرآن ليس وحياً من الله تعالى، وإنما تعلَّمه رسول الله ﷺ من بشر من الناس، فردَّ الله عليهم وكشف فريتهم في سورة النحل فقال:

٢٧- **﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣)﴾**

إنهم كذبوا، فإن اللسان الذي نسبوا إليه تعليم النبي ﷺ أعجمي لا يُفصح، والقرآن عربي غاية في الوضوح والبيان. فوقعوا بسبب كذبهم وتعنُّتهم في تناقض كبير، فشتان بين لسان من زعموا أنه يعلِّمه وبين هذا القرآن **﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾**.

وإنما أُطلق اللسان على اللغة؛ لأن أغلبها يعتمد على اللسان وعلى النطق، مع أن اللسان يُمثِّل جزءاً بسيطاً في عملية النطق، حيث يشترك معه في النطق الفم والأسنان والشفتان والأحبال الصوتية . . إلخ، لكن اللسان

هو العمدة في عملية النطق.

وقد تقدَّم أن الله تعالى علَّم نبيَّنا ﷺ القرآن، وعلَّمه الشرائع والأحكام، وعلَّمه مسائل الإيمان، وتفاصيل دينه الإسلام فقال:

٢٨- ﴿**الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢)**﴾[سورة الرحمن]

ولمّا كان التسهيل غرضاً رئيساً لتقريب العلم لطالبه، فإن الله تعالى يسَّر القرآن لمن أراد أن ينتفع به. قال الزجاج -رحمه الله-:

٢٩- «**معنى ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: سهَّله لأن يذكر ويقرأ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾**.

(١٠)

القرآن إنذارٌ وتذكارٌ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛

الإنذار في اللغة العربية: الإعلام المقترن بتهديد وتخويف، فهو أخص من مطلق الإعلام، ويأتي الإنذار في القرآن عاماً لجميع الناس كقوله تعالى:

١- ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢)**﴾[سورة المدثر]

قال ابن كثير:

٢- «**أي: «شمر عن ساق العزم، وأنذر الناس»**.

ويكون الإنذار في القرآن خاصاً بالكفار، لأنهم هم الواقعون فيما أنذروا به من النكال والعذاب، كما قال تعالى:

٣- ﴿**كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ . . (٢)**﴾[سورة الأعراف]

لكنه لمّا ختم الآية بقوله:

٤- ﴿**. . وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)**﴾

كأنه قصر الإنذار عليهم قصراً إضافياً لأنهم هم المنتفعون به دون غيرهم، ويدلّ لذلك:

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾

إلى غير ذلك من الآيات، وكما قصر الإنذار قصراً إضافياً على المؤمنين، قصر التذكير عليهم أيضاً، فقوله تعالى في سورة الغاشية:

٥- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ(٢١)﴾

فالتذكير عام، إلاَّ أنه لمّا كان المنتفع به المؤمن الذي يخشى الله ويخاف وعيده؛ صار كأنه مختص به ومقتصر عليه، ويدل لذلك:

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾

إلى غير ذلك من الآيات، فمن أعرض عن الذكر؛ أعرض عن الإنذار ودخل في الوصف الذي وصف الله تعالى به الكفار كما قال:

٦- ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠)﴾ [سورة يس]

لذا فإنه في الآية التالية بيّن من المنتفع بالإنذار دون غيره، فقال:

٧- ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ(١١)﴾

فالمنتفع بالإنذار هو (مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾، ونظيره قوله تعالى في سورة فاطر:

٨- ﴿ . . إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ. . (١٨)﴾

وفي هذه الآية الكريمة جعل الله تعالى إنذار نبيِّه ﷺ محصوراً في الذين يخشون ربهم بالغيب، وأقاموا الصلاة، وهذا الحصر الإضافي؛ لأنهم هم المنتفعون بالإنذار، وغير المنتفع بالإنذار كأنه هو والذي لم ينذر سواء.

وفي قوله تعالى: ﴿**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ أثبت سبحانه الإنذار للكفار من وجه ونفاه عنهم من وجه، فإن الإنذار مثل التعليم والتخويف والتذكير، فمن علَّمْتَه فتعلَّم فقد تم تعليمه، وآخر يقول: علَّمْته فلم يتعلَّم، ومثله من خوَّفته فخاف، ومثله من ذكَّرته فتذكَّر، فهؤلاء تم تعليمهم وتخويفهم وتذكيرهم. وهؤلاء لمّا استجابوا لله وللرسول ﷺ انتفعوا؛ لأنهم تعلَّموا فخافوا فتذكَّروا، فصاروا إلى الحياة، أو بمعنى آخر: نبض قلبهم بالإيمان لأنهم خافوا وتذكَّروا، فلمّا أنذروا صاروا بالإنذار منتفعين كما قال تعالى:

٩- ﴿**لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)**﴾[سورة يس]

أما الكافر فهو ميت القلب لا يستجيب، فلا يمكنه الانتفاع بالقرآن وبالتالي لا يمكنه الانتفاع بالإنذار.

ولمّا كان الفرقان من أعظم بركات القرآن. كما جرى توضيحه في الحلقة رقم (٧). فإن من حِكَم تنزيل الله القرآن أن يكون عبده محمد ﷺ ببركة التفريق بين الحق والباطل لَلعالمين نذيراً، ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبيِّن لهم مواقع رضى الله من سخطه، فقال:

١٠- ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١)**﴾[سورة الفرقان]

وهذه الآية الكريمة تؤكد على عموم رسالته ﷺ للإنس والجن جميعاً. فمن

قَبِلَ نذارته وعمل بها كان من الناجين في الدنيا والآخرة؛ الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، كما قال تعالى:

١١- ﴿**إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)**﴾[سورة فاطر]

قال الآجري -رحمه الله-:

١٢- «**فقد حذَّر ﷺ وأنذر، وبشَّر وما قصَّر**»[1].

ولمّا كان النبي ﷺ حريصاً على إيمان الناس والله تعالى أعلم بمن يؤمن، وأعلم بمن يكفر، لذا نهى نبيَّه محمداً ﷺ عن حزنه المفرط في مطلع السورة بقوله:

١٣- ﴿**فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(٨)**﴾

ثم أعلمه أنه مُخوِّفٌ ومُهدِّدٌ من عذاب الله، أرسله بالحق ليبشِّر من أطاعه بالجنة، وينذر من عصاه بالنار. فليس عليه غير ذلك ﴿**إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ**﴾، والهداية والإضلال إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ**﴾ قال القاضي ابن عطية الأندلسي- رحمه الله- في «المحرر»:

١٤- «**معناه أن دعوة الله تعالى قد عمَّت جميع الخلق وإن كان فيهم من لم تباشره النذارة فهو ممن بلغته، لأن آدم بعث إلى بنيه ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد ﷺ والآيات التي تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذير معناه نذير مباشر وما ذكره المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم فإنما ذلك بالفرض لا أنه توجد أمة لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله**».

وتقدَّم- في الحلقة رقم (٩)- أن من بركات وحِكَم تنزيل القرآن: التبشير

---

(١) "كتاب الشريعة"(ص:١٣٨٦)

والإنذار، تبشير المتقين، وإنذار الخصوم الألداء المجرمين، كما قال تعالى:

١٥- ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧)﴾[سورة مريم]

والتبشير الإخبار بما يسر النفس ويبهجها، أما الإنذار فهو إعلام بما يجب أن يحذر منه، وفي سورة الشعراء ردَّ نوح ﷺ على الذين استرذلوا المؤمنين لفقرهم وطالبوه بطردهم من مجلسه فيما لو أرادوا أن يسمعوا له، فقال:

١٦- ﴿. . وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)﴾

فبيَّن ـ عليه السلام ـ أنه لم يكلَّف العلم بأعمالهم وإنما كُلِّف بدعوتهم إلى الإيمان والحق، فإذا صاروا في التذكير إلى الإيمان الذي دعاهم إليه فلا يمكنه بعد ذلك طردهم لفقرهم وضعفهم، ثم عطف على ذلك بالبيان الذي يجب أن يفهمه كلُّ من أعرض عن ذكر الله وأبغض دعوة الحق، وعادى أولياء الله تعالى فقال: ﴿إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

والرسالة التي نزل بها جبريل على نوح ـ عليهما السلام ـ هي نفسها الرسالة التي نزل بها على قلب محمد ﷺ كما قال تعالى في السورة:

١٧- ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)﴾

في الآية الكريمة إثبات صفة العلو لله تعالى، وفيها أكَّد الله تعالى على علوِّ مقام كتابه العزيز في هذه السورة «الشعراء»، بما يفارق القرآن الشعر من بيانه وتذكيره، وعلمه وبلاغته، وقوَّة حجته وفرقانه، وصدق وعده ووعيده، وتبشيره وإنذاره.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى استقرار القرآن بألفاظه في قلب

النبي محمد ﷺ عند تنزيله. واختير من أفعاله النذارة لأنها أخص بغرض السورة فإنها افتتحت بذكر إعراضهم وبإنذارهم. وقوله تعالى: ﴿**بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ**﴾ قال البقاعي -رحمه الله-:

١٨- «**فيه تقريع عظيم لمن يعرف لسان العرب ولا يؤمن به**».

ومما خوَّف الله تعالى الناس في السورة قوله:

١٩- ﴿**وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ(٢٠٨)**﴾

وباشر النبي ﷺ دعوته بتلاوة القرآن واتباعه، بمعنى أنه باشر النذارة بالقرآن في عشيرته ثم في أهل مكَّة ومن حولها كما قال تعالى:

٢٠- ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢)**﴾[سورة النمل]

وختم الله تعالى سورة القصص بقوله:

٢١- ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩)**﴾

فقوله تعالى: ﴿**رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا**﴾ يعني: القرآن، فأخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة:

٢٢- «**أنَّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجج عليهم**»[1].

كما قال تعالى في سورة الإسراء:

٢٣- ﴿**. . وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥)**﴾

(١) **قاله: ابن كثير -رحمه الله-.**

قال الشنقيطي -رحمه الله-:

٢٤- «**ظاهر هذه الآية الكريمة: أن الله جلَّ وعلا لا يعذب أحداً من خلقه لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى يبعث إليه رسولاً ينذره ويحذِّره فيعصى ذلك الرسول، ويستمر على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار**».

ومع وضوح ما نزل به الرسول الملكي على الرسول البشري فإن الكفار لا يزالون يستقبلون القرآن العظيم كما لو أنه أمر عجيب كما قال تعالى:

٢٥- ﴿**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا. (٢)**﴾[سورة يونس]

ونظيره قوله تعالى في سورة «ق»:

٢٦- ﴿**بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ(٢)**﴾

والتعجب سببه التكذيب والامتناع عن اتباع الحق. كما ذكرنا في الحلقة رقم (٨).. والله تعالى هدَّد وخوَّف وأنذر في مطلع سور التنزيل بقوله:

٢٧- ﴿**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ(٢٦)**﴾[سورة المدثِّر]

أي: بوعيد لا بدَّ منه عن قرب، و(**سَقَرَ**) قال في «اللسان»:

٢٨- «**وسقرت الشمس تسقره سقراً: لوَّحته وآلمت دماغه بحرِّها، وسقرات الشمس: شدَّة وقعها**».

وقال البقاعي -رحمه الله-:

٢٩- «**قوله: ﴿سَقَرَ﴾ أي: الدركة النارية التي تفعل في الأدمغة من شدة حموها ما يجل عن الوصف**».

ثم قال في السورة بعد وصف زيادة فاعليتها:

٣٠- ﴿**إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ(٣٥)**﴾

كناية عن شدة هولها، وختم وصفها المؤلم بالتحذير منها بقوله:

٣١- ﴿**نَذِيرًا لِلْبَشَرِ(٣٦)**﴾

ثم في سورة «الليل» كرَّر التهديد والتخويف منها فقال:

٣٢- ﴿**فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى(١٤)**﴾

فوصفها وصفاً مروعاً بالتلهُّب والتوهج. وفي «اللسان»:

٣٣- «**ولظى اسم جهنم ـ نعوذ بالله منها ـ وسمّيت بذلك لأنها أشد النيران**».

وتنكير ﴿**نَارًا**﴾ للتهويل. قال الطبري:

٣٤- «**يقول تعالى ذكره: فأنذرتكم أيها الناس ناراً تتوهج وهي نار جهنم. يقول: احذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا، وتكفروا به، فتصلونها في الآخرة**».

وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربِّه عز وجل، فإنه أول هذه الأمة إسلاماً وأعظمها استسلاماً. وقام بتلاوة القرآن والعمل به، ليهتدي الناس ويعلموا ألفاظه ومعانيه، فالنبي ﷺ يهدي بالقرآن إلى طريق الرشاد، وينذر به عن طريق الغي. فعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب، يقول:

٣٥- «**أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا، حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه**»[1].

﴿**فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ**﴾ أي: نفع وثمرة الاهتداء عائدة عليه ﴿**وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ**﴾ أي: ليس بيده ﷺ من الهداية شيء. إنما هو كما قال تعالى في سورة هود:

٣٦- ﴿**. . إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)**﴾

قال الشنقيطي -رحمه الله-:

٣٧- «**أي لست يا محمد! بموكَّلٌ عليهم تهدي من شئت هدايته منهم، بل إنما أنت نذير فحسب، وقد بلغت ونصحت. والوكيل عليهم هو الذي يهدي من**

(١) "صحيح الترغيب والترهيب" (٣٦٥٩).

يشاء منهم ويضل من يشاء».

وقد توعَّد الله تعالى من كفر بالقرآن أن تكون النار موعده فقال في السورة:

٣٨- ﴿. . **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ**. . (١٧)﴾

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٣٩- «**وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم**».

فمن كفر بالقرآن منهم فالنار موعده، فليحذر كل من انتسب إلى الإسلام ومن ثم عادى دعوة الطائفة المنصورة في بيت المقدس ـ القائمة في منهاجها على منهاج النبوَّة والسَّلَف ـ أن يجعل نفسه موضع الاتهام لأنه تشبَّه بالكفّار.

وما هذه الأحزاب الضَّالة عن هدي النبوَّة والسَّلَف مثل:

حزب التحرير المعتزلي.

وفرقة الصوفية القبورية.

وفرق الإخوان الخارجية الصوفية القبورية الأشعرية الجهادية التكفيرية.

وفرقة الدعوة والتبليغ متعددة الجنسيات.

وفرقة السلفية الجهادية التكفيرية.

وفرق الخوارج بجميع أطرها.

وفرقة الجهاد الإسلامي الغزي الإيراني.

وفرق الشيعة.

وأحزاب الدجاجلة المنافقين.

وفرقة المرجئة السياسية الدجَّالة المنافقة.

وفرقة أشباه الجهمية من المعتزلة والأشاعرة.

والفرق المتوقفة في كل مكان.

ودواوين العائلات.

وجاهات العشائر والقبائل التي تحكم بشرعها.

ومن جمعتهم المعاصي على مختلف أنواعها.
وأحزاب القوميات.
وأحزاب الأقاليم.
وأحزاب الحكومات المتعددة الألوان والاتجاهات.
والأحزاب العلمانية.
إلى غيرها من الأحزاب الفاسدة.
إلاَّ أحزاب تصبُّ في نهاياتها عند ـ لكع بن لكع ـ فهي مناوئة ومعادية للطائفة المنصورة الممدوحة في القرآن بقوله تعالى:

٤٠- ﴿. . أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾[سورة المجادلة]

وعليه فيخشى من مواقفها المعادية للحق أن تؤول بعنادها وبُعدها عن كتاب الله العزيز بعد ظهور الحق وبلوغ الحجَّة؛ إلى فتنة موالاة أحزاب الكفر عقيدةً ـ والعياذ بالله، بعد أن كانت ولا تزال ـ من خذلان إلى خذلان ـ في موالاتها العملية، ومن أمثلة موالاتها العملية للكفّار: تشبهها بهم، وتفرُّقها عن منهج النبوَّة والسَّلَف، ونبذها القرآن بتأويلاتها الفاسدة، وتلاعبها بمسائل الإيمان.

ومعلوم أن سبب فلاح أهل الحق «الطائفة المنصورة» هو: موالاتهم لله ومعاداتهم فيه، فمن حقَّق الولاية الخالصة لله أفلح وانتصر، كما قال تعالى في سورة المائدة:

٤١- ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)﴾

فأين حزب الله ـ على منهاج النبوَّة والسَّلَف ـ من هذه الأحزاب المتنطِّعة الكذَّابة في الموالاة التامة والصادقة والخالصة لله تعالى؟ الجواب:

تقدَّم ذكره في سورة القلم في أوائل التنزيل حيث جاء ذكر النعمة بالقرآن قال تعالى:

٤٢- ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠)﴾ فمن بلَغه القرآن ولم يؤمن به، فلا بدَّ من وروده نار جهنم ليكون خالداً فيها معذَّباً، و﴿الأَحْزَابِ﴾ جمع حزب وهم: الذين تكتَّلوا من أهل مكة وغيرهم لمحاربة الرسول ﷺ ودعوته. نقل ابن كثير في «تفسيره» عن الربيع بن أنس قوله:

٤٣- «**حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذي دعا رسول الله r وأن ينذر كالذي أنذر**».

وعن سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ مرسلاً؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

٤٤- «**ما من أحدٍ يسمعُ بي مِنْ هذه الأمةِ، ولا يهوديٍّ، ولا نصرانيٍّ، فلا يؤمنُ بي؛ إلاَّ دخلَ النار**».

وزاد:

٤٥- «**فجعلت أقول: أين مصداقها في كتاب الله ؟ ! قال: وقلما سمعت حديثاً عن النبي ﷺ إلا وجدت له تصديقاً في القرآن؛ حتى وجدت هذه الآية: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾**: الملل كلها»[1].

ونظير ما تقدَّم قوله تعالى:

٤٦- ﴿. . وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . . (١٩)﴾[سورة الأنعام] صرح في هذه الآية الكريمة بأنه ﷺ منذر لكل من بلغه هذا القرآن العظيم

---

(١) أخرجه الطبري في"تفسيره"(١٣/١٢)؛ حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، قال: ثني أيوب عنه، وقال شيخنا الألباني -رحمه الله- في "السلسلة الصحيحة"(٣٠٩٣) وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات. والحديث أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" عن معمر به. وزاد: "الكفّار أحزاب كلهم على الكفر".

كائناً من كان، ويفهم من الآية أن الإنذار به عام لكل من بلغه، وأن كل من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار، وهو كذلك، كما قال تعالى:

٤٧- ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . (٢٨)**﴾[سورة سبأ]

فكل من بلغه القرآن فهو نذيرٌ له وداع، فمن اتبعه هُدِيَ، ومن خالفه وأعرض عنه ضَلَّ وشقي في الدنيا، والنارُ موعده يوم القيامة؛ ففي الصحيحين وغيرهما، أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بنى آدم من عربهم وعجمهم. كتابيهم وأمِّيهم امتثالاً لأمر الله له بذلك، فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

٤٨- «**وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِه؛ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِه الأُمَّة، يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1].

وقال ﷺ:

٤٩- «**بعثت إلى الأحمر والأسود**»[2].

وفي مسند أحمد بن حنبل (٥/ ١٤٥) قال الأعمش:

٥٠- «**فكان مجاهد يرى أن الأحمر: الإنس، والأسود: الجن**».

وقال ﷺ:

٥١- «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**»[3].

وابتدأ النبي ﷺ دعوته بالقرآن المبارك منذراً فكان أول ما أُمر بإنذارهم

---

(١) أخرجه مسلم في "صحيحه"، وابن منده في "التوحيد"، وأحمد، وغيرهم، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١٥٧).

(٢) أخرجه أحمد، وغيره، وفي رواية مسلم: "وبعثت لكل أحمر وأسود».

(٣) متفق عليه، وأخرجه غيرهما.

عشيرته كما قال تعالى:

٥٢- ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾[سورة الشعراء]

وفي الحلقة رقم (٥) قلت:

٥٣- «**والمذكِّر يسعى بجهده لتذكير الناس وهمّه أن يتذكَّروا، والشقي لا تقف حدود شقاوته عند إعراضه، بل يجب على المذكِّر أن يحذِّر، فالتحذير من التذكير كما قال تعالى:**

٥٤- ﴿. . . وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ. . (٧٠)﴾[سورة الأنعام]

يعني ذكِّر بالقرآن وحذِّر به ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ أي: مخافة أن تُسلَم نفس للهلاك والعقاب بسبب عدم انتفاعها من الذكرى. والنفس في الدنيا مرهونة بعملها، فإن تذكَّرت انتفعت وإلاَّ فُضِحَت وأُهلكت بكسبها الفاجر».

ثم تناول الله تعالى بإنذاره سكان مكة ابتداءً لأنهم أقرب الناس بالرسول ﷺ ثم جرى إنذار من حولها من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال:

٥٥- ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**. . (٩٢)﴾[سورة الأنعام]

فالقرآن كما أنزله الله تعالى للبركة أنزله ـ أيضاً ـ للإنذار، ففي سورة «القلم» ـ على سبيل المثال ـ بعد أن أثبت الله تعالى لنبيِّه ﷺ نعمة القرآن، ونفى عنه الجنون في سورة «التكوير» بقوله:

٥٦- ﴿**وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ(٢٢)**﴾

ألزمهم بقوله:

٥٧- ﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ(٢٦)**﴾

وفيها تهديد، بمعنى: أين تذهبون من عقابه وعذابه إذا لم تنتفعوا من إنذاراته؟! لذا قلنا ـ في الحلقة رقم (٣):

٥٨- «**فالقرآن العظيم نعمة وحجَّة وتذكرة، وليس قهراً ولا جبراً، لذا ختم الله تعالى السورة بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ(٢٨)﴾**.

ثم في سورة «الأعراف» وبَّخهم لينفي ما ذكروه من وصفهم للنبي ﷺ بالجنون فقال في سورة الأعراف:

٥٩- ﴿**أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ. .(١٨٤)**﴾

استفهام إنكاري ختم فيه الآية بقوله:

٦٠- ﴿**. . إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ(١٨٤)**﴾

ونظيره قوله تعالى في سورة «سبأ»:

٦١- ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦)**﴾

أما لماذا قرن الله تعالى الإنذار بذكر الليلة المباركة وهي ليلة القدر التي نزل فيها القرآن؟ كما قال:

٦٢- ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (٣)**﴾ [سورة الدخان]

فالجواب: أن الله تعالى لَمَّا أقسم بالقرآن في مطلع سورة الدخان، فقال:

٦٣- ﴿**حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)**﴾

استأنف جواب القسم بقوله: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ(٣)**﴾ كأنه قيل: أنزلنا القرآن العظيم في الليلة المباركة وهي ليلة القدر، لتقوم به الحجَّة، فمن أعرض عن القرآن والحق استحق العقاب، فقوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**﴾ أي: من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، لأننا معلِّمون الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً. فلا جرمَ أن يكون المعلِّم محذِّراً من عواقب المخالفة. بل من رحمة المعلِّم التحذير والتخويف والإنذار، وقوله تعالى في السورة:

٦٤- ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤)﴾

أي: يفصل ويكتب كلّ أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أمورهم. .الخ. فإذا كان الأمر كذلك فمن الأمر الحكيم بقضاء الرحمن الرحيم أن يكون الإنذار لمن أعرض عن التذكار. ولمّا جاء في مطلع سورة الأحقاف بأن الكفّار عمّا أنذروه معرضون كما قال:

٦٥- ﴿. .وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (٣)﴾[سورة الأحقاف]

تبيَّن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ في سورة الدخان إنما جاء للتأكيد على النذارة، وأن من بركات نزول القرآن التحذير من العقاب. لكن الكفّار عمّا خوِّفوا به من العذاب معرضون عنه غير ملتفتين إليه.

وسورة الأحقاف عالجت مسائل الإيمان والوحدانية بالله عز وجل، لذا جاء أمر الله لنبيِّه محمد ﷺ:

٦٦- ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)﴾

فالآية الكريمة أشارت إلى أهمية وضرورة إخبار الرسل ـ صلوات الله عليهم ـ لأقوامهم أنهم إنما يتبعون الوحي، وأنهم لهم منذرون، وامتثل النبي ﷺ أمر ربِّه فأخبر قريشاً أن الله تعالى قد أرسل قبله جميع الرسل إلى البشر، وقال: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ أي: وما أدري ما ينالني بسبب أعباء دعوتكم إلى الحق، وما أدري ما ينالكم بسبب إنكاركم الدعوة ﴿وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

ثم بيَّن الله تعالى في السورة أن القرآن كتاب مصدق أنزله بلسان عربي لينذرهم كما قال:

٦٧- ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا. .(١٢)﴾

لتكون الحجَّة استكملت من جميع أطرافها ووجوهها، فإن لم يؤمنوا

فقد ظلموا، وإن آمنوا سعدوا، والمؤمنون هم وحدهم السعداء بالقرآن لانتفاعهم به، فهو بمثابة البشرى لهم، لذا ختم الآية بقوله:

٦٨- ﴿. . وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (١٢)﴾

الجن أنذرت بالقرآن

٦٩- «**إن أول خبر كان في المدينة بمبعث رسول الله ﷺ أن امرأة بالمدينة كان لها تابع من الجن، فجاء في صورة طائر أبيض، فوقع على حائط لهم، فقالت له: ألا تنزل إلينا فتحدثنا ونحدثك، وتخبرنا ونخبرك؟ فقال لها: إنه قد بعث نبي بمكة حرَّم الزنا، ومنع منَّا القرار**»[1].

ومع بعثة النبي ﷺ ونزول القرآن مُنع الجان ومردة الشياطين من استراق السمع، لئلا يختطف أحدهم منه ولو حرفاً واحداً فيلقيه على لسان وليِّه فيلتبس الأمر ويختلط الحق. فكان من رحمة الله وفضله ولطفه بخلقه أن حجبهم عن السماء؛ فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما:

٧٠- «**كان الجن يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي، فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، فأما الكلمة فتكون حقاً، وأما ما زادوا فتكون باطلاً. فلما بعث رسول الله r منعوا مقاعدهم فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا من أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله r قائما يصلي بين جبلين، أراه قال: بمكة**»[2].

وعنه:

٧١- «**ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم، انطلق رسول الله ﷺ في طائفة**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في "الدلائل" (١٠٧/١)، وقال شيخنا في "صحيح السيرة": إسناده حسن.

(٢) "أخرجه الترمذي"(٣٣٢٤) باب "ومن سورة الجن" وقال: "هذا حديث حسن صحيح".

من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماوات، وأرسلت علينا الشهب، فقالوا: ما حال بيننا وبين خبر السماء إلا أمر حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا إلى نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء. قال فهنالك رجعوا إلى قومهم:

٧٢- ﴿. . فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢)﴾ [سورة الجن]

فأنزل الله على نبيِّه:

٧٣- ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ. . (١)﴾ [سورة الجن]

وإنما أوحي إليه قول الجن. وبهذا الإسناد عن ابن عباس قال:

٧٤- «قال الجن لقومهم: ﴿. . لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا(١٩)﴾ [سورة الجن]

قال:

٧٥- «لمَّا رأوه يصلي وأصحابه يصلون بصلاته فيسجدون بسجوده قال: فعجبوا من طواعية أصحابه له، قالوا لقومهم: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾»[1].

(١) أخرجاه في «الصحيحين» وأحمد، والترمذي، وأبو نعيم.

كان الجن أسرع تقديراً لفهم مجريات الأمور قبل غيرهم من الإنس. فبعد مشاهدتهم ما جرى، ومتابعتهم الحدث بمنعهم عن الوصول إلى أرجاء السماء، والدنو منها، وبالتالي رمي من استرق السمع منهم، وهذا مخالف لعادتهم في تمكنهم من الوصول إلى تلقف خبر السماء، جزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً، من خير أو شر، فلهذا كان مما قالوه:

٧٦- ﴿**وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا(١٠)**﴾

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٧٧- «**أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغيَّر عليهم تغيُّراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم، أن هذا الأمر يريده الله، ويحدثه في الأرض**».

وقال -رحمه الله-:

٧٨- «**وجعلوا السبب الدَّاعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، المثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمرْبى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة**».

لقد دفع الحدث بالجن الإقرار بأن منهم فسَّاقاً، وفجّاراً، وكفّاراً، لذا قالوا:

٧٩- ﴿**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ. .(١١)**﴾

وكشفوا خطورة التفرق الذي هم عليه فقالوا:

٨٠- ﴿**. . كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا(١١)**﴾

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

٨١- «**أي: مذاهب شتى: مسلمون وكفار؛ وأهل سنة وأهل بدعة**»[١].

وفي موضع آخر قال:

٨٢- «**مسلمين، ويهود، ونصارى، وشيعة، وسنَّة**»[٢].

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٨٣- «**أي: فرقاً متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون**».

والمقصود من الآية: مدح الصالحين، وذم الطالحين، ودعوتهم إلى الاقتداء بأهل الصلاح والتقوى والإيمان.

وبعد أن تبيَّن لهؤلاء النفر من الجن كمال قدرة الله، أعلنوها بصراحة واضحة لا شك فيها فقالوا:

٨٤- ﴿**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا(١٣)**﴾

وهذه حقيقة لا يتنعَّم بها إلاَّ الذين أنعم الله عليهم بالهداية، وعرفوا معنى الدعوة إلى الحق. لقد وفَّقهم الله عز وجل إلى الإيمان به، وإلى الإخلاص في عبادته.

والمقصود في الآية: إظهار ثقة المؤمنين المطلقة في عدالة الله تعالى، لأنهم لا يخافون الغبن في الأجر والثواب، ولا يخافون أن تلحق بهم الإهانة والمذَّلة والمكروه.

وفي الآية دليل على أن من تمسك بدعوة الأنبياء والرسل على منهاج الحق، وأخلص لله فيها، كان حكيماً شجاعاً، وبالتالي فإنه لا يخشى نقصاً ولا أذى يلحقه، وإذا سلم من الشر، حصل له الخير. قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-:

---

(١) "مجموع الفتاوى (٢٩/١٩).

(٢) "مجموع الفتاوى (١٨٧/٤).

٨٥- «**ومفهوم الآية أن من يكفر فإنه يخاف**»[١].

والنبي ﷺ لَمَّا أُمر بقصِّ نبإهم على الناس ابتدأ ببيان ما من أجله سارع الجن للتعبير عن أهمية الحدث العظيم الكبير: ﴿**فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا**﴾ وهذا من فضل الله تعالى على هؤلاء النفر من الجن الذين صرفهم الله لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجَّة، وتتم عليهم النِّعمة، ويكونوا منذرين لقومهم.

وفي سورة الأحقاف ومقصودها إنذار الكافرين زاد الله فيها الحدث بياناً وإيضاحاً فقال:

٨٦- ﴿**وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠)**﴾.

قال القرطبي -رحمه الله-:

٨٧- «**هذا توبيخ لمشركي قريش، أي: إن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصرُّون على الكفر**».

وقد وجَّه الله تعالى النفر من الجن، قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-:

٨٨- «**هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلمّا سمعوه قالوا: ﴿أَنْصِتُوا﴾، قال: صه، وكانوا تسعة أحدهم زوبعة، فأنزل الله . . وذكر الآية**»[٢].

فلما أنصتوا فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، وأنه لَمَّا ﴿**قُضِيَ**﴾ أي: انتهى النبي ﷺ من قراءته ﴿**وَلَّوْا**﴾ أي: رجعوا ﴿**إِلَى قَوْمِهِمْ**﴾ من

---

(١) "الفتح" (٨/٥٣٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، والبيهقي في "دلائل النبوَّة"، وأبو نعيم في "الدلائل"، بسند حسن.

الجن ﴿مُنْذِرِينَ﴾ أي: مخوِّفين لهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بالله، ويجيبوا داعيه محمداً ﷺ.

فالجن بعد سماع القرآن والإنصات له بتدبُّر وخشوع، علموا أنه يهدي إلى الحق، فليس في المسألة مواربة، وليس عندهم اتجاه نصوصه تأويل فاسد، كما يفعل المبتدعة ومن على شاكلتهم من المنافقين، لذا انطلقوا دعاة إلى الله على بصيرة محذِّرين ومنذرين من بأس الله إن لم يؤمنوا قائلين:

٨٩- ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١)﴾

وقدَّ دل القرآن العظيم أن استماع هؤلاء النفر من الجن، وقولهم ما قالوا عن القرآن كله وقع ولم يعلم به النبي ﷺ، حتى أوحى الله ذلك إليه. ثم أنهم هدّدوا تهديداً شديداً لمن تخلف عن الدعوة وإجابة داعي الله منهم فقالوا:

٩٠- ﴿وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٣٢)﴾

فيا أيها الناس استجيبوا لدعوة الله، وأطيعوه، ولا تعصوه، استقيموا على منهاج نبيكم محمدٍ ﷺ وإياكم الإعراض أو الصدّ عن الحق وأهله.

(١١)

القرآن إعذار وإنذار

ذكرت في الحلقة السابقة:

١- «**أن من حِكَم تنزيل القرآن العظيم أن يكون محمد ﷺ ببركة التفريق بين الحق والباطل للعالمين نذيراً، ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبيِّن لهم مواقع رضى الله من سخطه**».

لذا جاء قوله تعالى في سورة «النجم»:

٢- ﴿**هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦)**﴾

والنذير: المخوِّف، الحذر لما يعاين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم، فقوله تعالى: ﴿**هَذَا نَذِيرٌ**﴾ إشارة إلى هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، وقوله: ﴿**مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى**﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، فهو من جنسهم، أرسل كما أرسلوا، وأنذر كما أنذروا من قبله، قال قتادة:

٣- «**أنذر محمد كما أنذرت الرسل من قبله**»[1].

وقال الشيخ العلاّمة السعدي -رحمه الله-:

٤- « **فلأي شيء تنكر رسالته؟ وبأي حجة تبطل دعوته؟ أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟ ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل**

(١) أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه"(٢٩٥٤) عن معمر به.

من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذَّب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذِّبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرِّ المحجَّلين؟».

وفي الحديث:

٥- «**وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء**»[1].

قال النووي -رحمه الله-:

٦- «**قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة؛ نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم، قالوا: وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظراً، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو**».

وكما أن الأنبياء والرسل تقطع العذر بتبليغ الناس الذكر، فإن الملائكة هي أيضاً تقطع العذر بتبليغ الأنبياء والرسل الذكر كما قال تعالى:

٧- ﴿**فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧)**﴾[سورة المرسلات]

قوله تعالى: ﴿**أَوْ**﴾ في الآية: ﴿**عُذْرًا أَوْ نُذْرًا**﴾ بمعنى: الواو، فالملائكة أتت الرسل بالذكر إعذاراً وإنذاراً، كما قال تعالى في سورة النحل:

٨- ﴿**يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)**﴾

لأن الإنذار إنما يكون بالوحي، بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ**﴾ وفي الآية الكريمة تحذير شديد من الشرك، ولذلك جاء الإنذار، فالمطلَوب: إنذار الكفّار والمشركين من عاقبة الكفر بالله تعالى

---

(١) متفق عليه.

والإشراك به.

وقوله تعالى في الآية: ﴿**فَاتَّقُونِ**﴾ تنبيه على الأحكام الفرعية بعد التنبيه على الأحكام العلمية بقوله: ﴿**أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا**﴾، فقد جمعت الآية بين الأحكام الأصلية والفرعية. قال ابن كثير -رحمه الله-:

٩- «**فإنها تنزل - أي: الملائكة - بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغيّ، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره**».

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

١٠- «**تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطع معذرتهم، فلا يكون لهم حجة على الله**».

وكذلك الرسل أتت الناس إعذاراً وإنذاراً، ولمّا كان في النتيجة أن الذين يخافون وعيد الله تعالى هم وحدهم المنتفعون بالقرآن كما قال تعالى:

١١- ﴿**. . . فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)**﴾[سورة ق]

لذا فإن الله تعالى بيَّن في المقابل -في مطلع السورة ذاتها- من الذين لا ينتفعون بالقرآن؛ وهم الذين لا يخافون وعيده فقال:

١٢- ﴿**بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢)**﴾

والتعجب - كما ذكرنا - سببه التكذيب والامتناع عن اتباع الحق بعد أن علموا ما للقرآن من قدر عظيم وشرف. وكفار قريش عجبوا من أجل أن جاءهم رسول منذر منهم، ولم يتوقَّف تعجبَّهم عند حد التكذيب والامتناع، بل إنهم سبّوا النبي ﷺ ووصفوه بالساحر والكذّاب كما قال تعالى في سورة «ص»:

١٣- ﴿**وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)**﴾

وذكر الله تعالى مثل عجبهم هذا في سورة الأعراف عن قوم نوح، وعن

قوم هود، فقال:

١٤- ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ. .(٦٣)﴾

ولم يقتصر التعجب على كفّار قريش، والكفّار في قوم نوح، والكفّار في قوم هود، بل امتدَّ ليشمل كل الكفّار كما قال تعالى في سورة يونس:

١٥- ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا. .(٢)﴾

وليس هذا بعجيب، بل العجيب منهم أنهم يكذِّبون، ويمتنعون عن الإيمان بوحدانية الله تعالى.

وإنذاره ﷺ للعرب لا ينفي أن يكون مرسلاً لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلاً ولغيرهم تبعاً، وإنذاره ﷺ اقترن بدعوتهم إلى وحدانية الله وترك الشرك كما قال تعالى:

١٦- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦)﴾ [سورة ص]

وفي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله، المشركين به، المكذبين لرسوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ يقول: هذا نهاية ما عندي، ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ هذا تقرير لألوهيته، وربوبيته عز وجل بهذا البرهان القاطع.

والقرآن نبأ عظيم الشأن؛ كما قال تعالى:

١٧- ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨)﴾

أنتم عنه غافلون، وأنتم عنه منصرفون، لا تعملون به!! ولا أظهر من نذارته ﷺ وهو يخبرهم:

١٨- ﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠)﴾

فلا نذارة أبلغ من نذارته ـ عليه الصلاة والسلام ـ. كما قال تعالى:

١٩- ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١)**﴾ [سورة الذاريات]

فكيف يليق بهؤلاء الكفّار والمشركين أن يصفوا النبي ﷺ بالجنون وهو لهم نذير مبين؟ كيف يليق بهم وهو يوضِّح لهم الحق من الباطل، ويحذِّرهم من سوء المصير إذا ما بقوا على كفرهم وشركهم وهم يصفونه بالساحر والكذَّاب والمجنون؟

وفي سورة الأعراف وبَّخهم الله تعالى لينفي ما وصفوه ﷺ بالجنون، ويثبت لهم أنه نذير مبين، ونلمس هذا الموقف ذاته من قوم نوح حين كذَّبوه:

٢٠- ﴿**وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩)**﴾ [سورة القمر]

فردَّ عليهم نوح ﷺ وبيَّن لهم قائلاً:

٢١- ﴿**إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)**﴾ [سورة الشعراء]

لذا جاء أمر الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ في سورة الأحقاف:

٢٢- ﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩)**﴾

أي: قل لهم يا محمد! أن إرسال الرسل ليس بدعاً، ولا مستغرباً، بل أُرسلت الرسل للأمم قبلكم، وأُرسلت بالنذارة، وأنا كذلك أُرسلت إليكم، وأُرسلت لأنذركم، قال الشنقيطي -رحمه الله-:

٢٣- «**ومعنى الآية قل لهم يا نبي الله: ما كنت أول رسول أرسل إلى البشر، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي، واستنكاركم إيَّاها، لأن الله أرسل قبلي رسلاً كثيرة**».

وهذا ما أكَّده الله تعالى في مطلع سورة نوح ﷺ وهو أول نبي أُرسل فقال:

٢٤- ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١)**

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤)﴾

ولمّا كانت الدعوة السلفية في بيت المقدس ـ اليوم ـ على منهاج النبوَّة والسلف، فلمَ معاندتها والوقوف بوجهها ومحاربتها، وأنتم في أمسِّ الحاجة إليها؟! ايتوني بدليل علمي صحيح تردّون به عليها.

أليست الدعوة السلفية في بيت المقدس ـ ولله الحمد ـ نذيراً لكم؟ أليس من أهدافها وأغراضها لفت انتباهكم إلى عمق مخالفاتكم لشريعة ربكم عز وجل؟ أليس من أهدافها وأغراضها لفت انتباهكم إلى عمق مخالفاتكم لمسائل الإيمان المنصوص عليها في القرآن والسنَّة؟ أليست هي نعمة من الله عليكم؟ أليست هي رحمة من الله بكم؟ فلمَ تدفنون رؤوسكم بالتراب كأنكم لا تريدون سماع ما فيها وعظكم؟ قال الشيخ السعدي -رحمه الله:

٢٥- «**فإن قبلتم رسالتي وأجبتم دعوتي فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي فحسابكم على الله وقد أنذرتكم ومن أنذر فقد أعذر**».

وختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿**وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾ قال ابن كثير -رحمه الله-:

٢٦- «**أي: بيِّن النّذَارة، وأمري ظاهر لكل ذي لب وعقل**».

وكنّا ذكرنا في ـ الحلقة التاسعة:

٢٧- «**أن القرآن لفصاحته وقوة بلاغته وبيانه يليق بحال المنذرين الذين طُلب منهم أن يفهموه ويعقلوه، وأول من تناولهم في خطابه سكان مكة ابتداءً لأنه نزل بلغتهم العربية، ولأنهم أقرب الناس بالرسول ﷺ**».

فقوله تعالى:

٢٨- ﴿**لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦)**﴾ [سورة يس]

هم العرب المعاصرون له ﷺ والمراد بالقوم: كفار مكة الذين بعث النبي ﷺ لإنذارهم، وهذا لا يمنع أن رسالته عامة إلى الناس جميعاً، كما قال تعالى:

٢٩- ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا . .(١٥٨)**﴾ [سورة الأعراف]

وقال:

٣٠- ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٤٩)**﴾ [سورة الحج]

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٣١- «**وذِكرهم وحدهم . أي: العرب . لا ينفي مَنْ عداهم . كما زعمه بعض النصارى، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم**».

والمراد في قوله تعالى: ﴿**آبَاؤُهُمْ**﴾ الأقربون، لأن قريشاً لم يأتهم نبي قبل محمد ﷺ، ولأن آباءهم الأبعدين قد أرسل الله تعالى إليهم إسماعيل ﷺ، وآباء غيرهم أنذروا بعيسى ﷺ، فسكان مكَّة لم يسبق لهم أو لآبائهم الأقربين أن جاءهم منذر منهم يحذرهم من سوء عاقبة الإشراك بالله تعالى فهم لذلك ضالون غافلون عن الإنذار، وعما يجب عليهم نحو خالقهم من إخلاص العبادة له، وطاعته في السر والعلن. كما قال تعالى:

٣٢- ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)**﴾ [سورة الجمعة]

وبان أن الإنذار من حِكَم تنزيل القرآن، لأن الغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل معطَّل عن وظيفته. لكن يمكنه الانتفاع بالقرآن عند الإنذار. فالإنذار هو أليق شيء لمعالجة الغفلة بعد أن مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر، أو ينبههم منبِّه. قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٣٣- «**وهم العرب الأميّون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد**

عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل اللّه إليهم رسولاً من أنفسهم، يزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميّين، ومن لحق بهم من كل أمّيّ، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فنعمة اللّه به على العرب خصوصاً، وعلى غيرهم عموماً».

فكما أنذر الرسلُ السابقون أقوامهم، قم أنت يا محمد! فأنْذِر قومك، وانضمّ إلى موكب الرسل في مهمَّتهم.

وابتدأ النبي ﷺ دعوته بالقرآن المبارك منذراً فكان أول ما أُمر بإنذارهم عشيرته كما قال تعالى:

٣٤- **﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾** [سورة الشعراء]

فأتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه، ثم نادى:

٣٥- **«يا صباحاه».**

فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ:

٣٦- **«يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟».**

قالوا: نعم. قال:

٣٧- **«فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»**[1].

وفي رواية: قام رسول الله ﷺ فقال:

٣٨- **«يا فاطمة ابنة محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم»**[2].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأحمد، والنسائي، والترمذي.

(٢) انفرد بإخراجه مسلم.

وفي رواية: دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فعمَّ وخصَّ، فقال:

٣٩- «**يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني- والله- ما أملك لكم من الله شيئا، إلا أن لكم رَحمًا سأبُلها ببلالها**»[1].

ونظير ما تقدَّم بشأن إنذار قومه ﷺ قول الله تعالى في سورة «القصص»:

٤٠- ﴿. . **لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)**﴾

أي: أرسلناك إليهم كي يتذكروا ما ترشدهم إليه، ويعتبروا بما جئتهم به، ويخشوا سوء عاقبة مخالفة إنذارك لهم، قال البقاعي -رحمه الله-:

٤١- «**فأشار سبحانه إلى ما تثمر نعمة الإنذار، ويبعثه التيقظ بالتذكار**».

وقال في سورة السجدة:

٤٢- ﴿. . **لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣)**﴾

فنعمة النذارة لا تتوقف حدودها عند التذكرة بل تتعدّاها إلى الهداية وذلك باتباع الحق والعمل به. ونحو الذي تقدَّم قول الله تعالى في سورة «سبأ»:

٤٣- ﴿. . **وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤)**﴾

يعني: العرب، قال صاحب «التفسير الكبير»:

٤٤- «**فإن الله إذا أرسل رسولاً فما دام في القوم من يبيِّن دين ذلك النبي ويأمر به لا يرسل الرسول في أكثر الأمر، فإذا لم يبق فيهم من يبيِّن، ويضل الكل، ويتباعد العهد، ويفشو الكفر، يبعث رسولاً آخر مقرراً لدين من كان قبله أو واضعاً لشرع آخر، فمعنى قوله تعالى: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي:**

---

(١) رواه البخاري، مسلم، والترمذي، والنسائي.

ما أنذروا بعد ما ضلوا عن طريق الرسول المتقدم، واليهود والنصارى دخلوا فيه؛ لأنهم لم تنذر آباؤهم الأدنون بعد ما ضلّوا، فهذا دليل على كون النبي ﷺ مبعوثاً بالحق إلى الخلق كافة».

ثم كشف الله تعالى موقف كفار قريش من دعوة النبي المصطفى ﷺ بعد مباشرته لهم الإنذار بما نزل في القران كما قال في مطلع سورة «الكهف»:

٤٥- **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤)﴾**

لقد استقبلوا الإنذار بالسخرية والاستخفاف، وهو أشدُّ التكذيب، كما قال تعالى في السورة نفسها:

٤٦- **﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾** [سورة الكهف]

قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٤٧- **«أي: وما نرسل الرسل عبثاً، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، وينهون عن كل شر، ويبشرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل، ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزءوا برسل الله وآياته».**

ثمَّ بيَّن الله تعالى أن من حِكَم إنزاله القرآن: إنذار الناس به، وتحقيق معنى لا إله إلا الله، وتذكر أولي الألباب، فقال:

٤٨- **﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾** [سورة إبراهيم]

ثمَّ بيَّن في سورة «المؤمنون» سبب إقدامهم على الكفر بقوله:

٤٩- ﴿**أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)**﴾

فدلَّت الآية الكريمة على أن تدبُّر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، لكن الذي منعهم من التدبّر إصرارهم أن تبقى قلوبهم مقفلة اتجاه بعثة الحق الذي جاء بها محمد ـ عليه السلام ـ وكذلك اتجاه كل بعثة مجددة لدين محمد ﷺ.

وقوله تعالى في الآية: ﴿**أَمْ**﴾ بمعنى: بل ﴿**جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ**﴾ أي: جاءهم ما لا عهد لآبائهم ـ الذين كانوا في الفترة ـ به، فلذلك أنكروه، وتركوا التدبر له. قال ابن كثير -رحمه الله-:

٥٠- «**ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك**».

وقوله تعالى: ﴿**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا**﴾ نبه بذلك على أنهم عرفوه؛ وعرفوا صحة نسبته وأمانته، فكيف كذَّبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على أنه أمين؟ ونسبتهم إياه إلى الجنون ﴿**أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ**﴾ وكانوا يعلمون أنه أرجحهم عقلاً ولكنه جاء بما يخالف هواهم فتشككوا في أمره، أو شككوا العوام؛ إبقاء على مناصبهم ورياستهم.

ثم أضرب عن أقوالهم منبهاً على مصداقيته فقال ﴿**بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ**﴾ وهو الذي يفرّون منه ـ الآن، ويعملون جهدهم لأجل طمسه.

واعلم أن أهل الكتاب كانوا على علم ببعثة محمد ﷺ، وأنه سيأتي بالقرآن على فَتْرة من الرسل، وها هم ـ الآن ـ يسمعون القرآن؛ وإذا كان أهل مكة قد بعدت صلتهم بالرسل والأنبياء وكانوا على فترة من الرسل، فأهل الكتاب بجوارهم في المدينة يعلمون حقيقة بعثة النبي محمد ﷺ فهم كانوا يقولون

لعبدة الأوثان من العرب: نحن في انتظار النبي الخاتم الذي سيرسله الله لنسبقكم إلى الإيمان به، فإذا ما سبقناكم إلى الإيمان به وظللتم على كفركم، سنقتلكم به قتل عاد وإرم.

فكان في ندائه سبحانه وتعالى لليهود والنصارى بقوله في سورة المائدة:

٥١- ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(١٩)**﴾

تنبيه لهم إلى أن مصاحبتهم للكتاب وكونهم أهل معرفة، يوجبان عليهم المبادرة إلى اتباع الرسول ﷺ الذي بشرت بمبعثه كتبهم التي بين أيديهم، والذي يعرفون صدقه كما يعرفون أبناءهم.

ولما كان المعنى: فلا تقولوا ﴿**مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ**) كان الجواب ﴿**فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ**) وهو محمد ﷺ ﴿**رَسُولُنَا**﴾ أي: الذي عظمته من عظمتنا، ﴿**يُبَيِّنُ لَكُمْ**﴾ ما ينفعكم بياناً شافياً، ﴿**عَلَى فَتْرَةٍ**﴾ ومعنى الفترة: الانقطاع ويكون فيها سكون خال عن مجيء رسول الله ﷺ، وهي الفترة التي بينه ﷺ وبين أخيه عيسى ـ عليه السلام، وهي طويلة بالنسبة إلى ما كان يكون بين النبيِّين من بني إسرائيل، كما ثبت في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة أن رسول ﷺ قال:

٥٢- « **أنا أولى الناس بابن مريم ليس بيني وبينه نبي**».

فها هو رسولنا قد جاءكم بالفرقان الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل، جاءكم بعد فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عُبَّاد الأوثان والنيران والصلبان، وشدَّة الحاجة إليه، فكانت النعمة به أتم النعم.

وخلاصة المعنى: لقد جاءكم يا معشر أهل الكتاب رسولنا محمد ﷺ يبين

لكم شرائع الله بعد فترة متطاولة من انقطاع الرسل، لكي لا تقولوا على سبيل المعذرة يوم الحساب، ما جاءنا من بشير يبشرنا بالخير عند الطاعة، ولا نذير ينذرنا بسوء العاقبة عند المعصية.

ولمّا كان النبي ﷺ كما أخرج الطبري عن ابن عباس. يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى، فأخبر الله جل ثناؤه أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول. فقال:

٥٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾[سورة البقرة]

فالآية كانت بمثابة التسلية من الله لرسوله ﷺ لا اعتذاراً للكفار. ولا تيئيساً له ﷺ. فالله تعالى يعلم مسبقاً أفعال الناس سواء ما كان منها خيراً أو ما كان منها شراً. فـ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ**﴾. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ أي: اتصفوا بالكفر، وانصبغوا به، فهذا حالهم وهذا ديدنهم، فصار الكفر وصفاً لازماً لهم، لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم، فالكفر راسخ فيهم، ففي الآية الكريمة بيان لما وصل إليه هؤلاء الجاحدون من عناد وانصراف عن الحق.

حَكَم الله تعالى عليهم بالكفر لأنهم ستروا باختيارهم ما أقيم من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وجحدوا ربَّهم فكانوا معرضين فداموا على ذلك بما دلَّ عليه السياق بالتعبير عن أضدادهم بما يدل على تجديد الإيمان. فالكفار ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ أي: متعادل

عندهم الإنذار وتركه، والإنذار إعلام مع تخويف، قال ابن الجوزي -رحمه الله: قال شيخنا علي بن عبيدالله:

٥٤- «**هذه الآية وردت بلفظ العموم، والمراد بها الخصوص، لأنها آذنت بأن الكافر حين إنذاره لا يؤمن، وقد آمن كثير من الكفار عند إنذارهم، ولو كانت على ظاهرها في العموم، لكان خبر الله لهم خلاف مخبره، ولذلك وجب نقلها إلى الخصوص**»[1].

وفي الآية قوله تعالى: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**﴾ وفي سورة «يس» جاءت مع العاطف ﴿**وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ**﴾ وحكمته أن ما في «يس» وما بعده جملة معطوفة على جملة أخرى فاحتاجت إلى العاطف، والجملة هنا ليست معطوفة.

ولم يذكر سبحانه التبشير مع الإنذار، لأنهم ليسوا أهلاً للبشارة، ولأن الإنذار أوقع في القلوب، والذي لا يتأثر به يكون عدم تأثره بغيره أولى.

فهم أموات فلمَّا جحدوا نعمة الله تعالى وعَموا عن آياته وحسدوا رسوله على ما آتاه الله من فضله، صاروا بسبب ذلك في حضيض، جمد معه شعورهم، وبرد فيه إحساسهم، فلا تؤثر فيهم موجعات القول، ولا تنفذ إلى قلوبهم بالغات الحجج، فهم كما قال الشاعر:

لقد أسمعت إذ ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادي

(١) "زاد المسير"(١/٢٧).

(١٢)

الدَّمار على من أهمل الإنذار

في سورة المزمِّل لَمَّا ذكَّر الله تعالى بالعذاب، خاطب السامع بخبر قصد فيه التعريض بالتهديد أن يصيبهم مثل ما أصاب أمثالهم ممن كذَّبوا الأنبياء والرسل ومن دعا بدعوتهم، فهو مثل مضروب للكفّار والمشركين ولمن صدَّ عن دعوة رب العالمين، وذلك عبر التاريخ كلِّه إلى قيام الساعة فقال:

١- ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً(١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً(١٦)**﴾

وفي الآية دليل على صدق المبعوث بالرسالة، أو دليل على صدق المجدد لدين الله تعالى. والمبعوث هنا بالرسالة هو محمد بن عبد الله ﷺ أرسله الله إلى قريش، وقد جاء التعبير بضمير المتكلم ﴿**إِنَّا**﴾، مراعاة لمقام الربوبية العظيمة الجليلة، واستثارة للرهبة والمهابة، وتذكيراً بسلطان الرب، خالق السماوات والأرض، والمهيمن على كل شيء بربوبيته، القادر على إهلاك المكذِّبين وكل جبَّار مجرم.

ولما كان التخويف بالمؤجَّل لا يحدث إرباكاً في نفس السامع كما يحدث التخويف بالمعجَّل، حقَّ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً**﴾ ولو جرى على الأصل لقال: (إنا أرسلنا إليهم رسولاً) والغرض من الالتفات: التقريع والتوبيخ على عدم الإيمان.

وقد بيَّن الله تعالى صفة مميزة بالرسول وهي ﴿**شَاهِدًا عَلَيْكُمْ**﴾ كما قال تعالى في سورتي «الأحزاب» و «الفتح»:

٢- ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾

أي: شاهداً عليكم بأنه بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وهذه الصفة أو هذه الوظيفة وإن لم تكن من أوائل وظائفه، فهي أي: أداء الشهادة، هي وظيفته في الدنيا ويوم الدين، فعليكم أن تأخذوا بيانات الرسالة على محمل الجد منذ اللحظة الأولى لأنه في النهاية هو شاهد عليكم، ويشهد عليكم يوم القيامة بالإجابة أو الامتناع.

فكان من صور التخويف المعجَّل لهم ما حلَّ بالكاذب فرعون وقصته مشهورة عند أهل الكتاب، وخص الله تعالى ذكر فرعون دون قومه فقال: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً**﴾ إشارة إلى أنه كان صاحب الكلمة المطاعة النافذة، وكان من أولي النعمة. وأن الله تعالى أرسل إليه رسولاً يدعوه إلى الحق. ﴿**فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ**﴾ أي: كذَّب به ولم يؤمن، ﴿**فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً**﴾ أي: فعاقبناه عقاباً شديداً ثقيلاً. قال ابن كثير:

٣- «**فاحذروا أنتم أن تكذِّبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى في سورة النازعات:**

٤- ﴿**فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى (٢٥)**﴾

وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذَّبتم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران».

وقال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

٥- «**يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله**

إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذه الله أخذاً وبيلاً، أي: شديداً بليغاً».

فالرسول حجَّة، وما جاء به حجَّة، والقرآن حجَّة، وكذلك الدعوة السلفية في بيت المقدس ـ اليوم ـ هي حجَّة على الناس، لأن أهلها عدول، ولأنها دعوة الأنبياء والرسل والسلف الصالح، وهي حجَّة على الناس في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الذي يصد عن هذه الدعوة الصحيحة التي تنتهج بفضل من الله تعالى منهج النبوة والسلف آثم يلحقه الخزي والعار في الدنيا قبل العذاب في الآخرة، فالدعوة السلفية صاحبة رسالة ربَّانية هي رسالة النبي محمد ﷺ التي بلَّغها للناس كافة، وحملها الصحابة – رضوان الله عنهم – وبلَّغوها بدورهم كما نزلت من عند الله وبيَّنها نبيهم محمد ﷺ.

وما يجري على الأرض الآن من نزاعات، وفتن، وقلاقل، وزلازل، وتفرق، وتشتت، وتحزب، وانتشار أمراض، وتسلط للقوي على الضعيف، وأكل حقوق الآخرين ظلماً وعدواناً، واستعمال النفاق بكل صوره الخسيسة تحقيقاً لمآرب خاصة ولو كان الوصول لهذه المآرب باسم شرع الله تعالى أحياناً، وباسم سماحة الإسلام والدفاع عنه أحياناً أخرى، أو التصرف بتأويلات ليس لها أصل صحيح في الشرع، أو فهم صحيح عن السلف، إنما سببه عدم الرجوع بإخلاص إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة. ومن رحمة الله تعالى بالبشر على الأرض أنهم إذا ضلّوا بعث لهم من يجدد لهم الدين، ويبين لهم الحق بالقول المتين، ويكون حجة عليهم إذا لم يستجيبوا له.

والله تعالى لما أرسل النبي محمداً ﷺ إلى قريش ليأمرهم بكلمة التوحيد بيَّن أن محمداً شاهداً عليهم. فهو حجَّة عليهم، وكذلك القرآن الذي أنزله الله عليه حجَّة عليهم.

وبعد ان عَرَّض الله تعالى بالتهديد في سورة «المزملِ» لمن يكذِّب بدعوة الحق، أتبع في سورة «القمر» ما صدر من قولٍ عن المكذِّبين في معجزة مرئية وهي رؤيتهم انشقاق القمر، لينبِّه إلى أن شؤم الإعراض والتكذيب سببه اتباع الهوى رغم ما جاءهم من الحق، ورغم ما جاءهم من الأخبار الزاجرة عن كذبهم وضلالهم. كما قال تعالى:

٦- ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)**﴾

ومن أشهر هذه الأنباء التي وصلتهم وتقدم تذكيرهم بها: قصص هود وصالح ونوح ولوط - عليهم السلام -، فعليهم الاعتبار والاتعاظ، فإن من شأن هذه الأخبار أن يتأثر بها السامع ليكفَّ عن تكذيبه وضلاله، لذا كان الله تعالى مع كل قصَّة من قصص هؤلاء الأقوام في السورة يقول:

٧- ﴿**فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦)**﴾

للتهويل والتعجيب من شدَّة العذاب الذي حاق بهم، وقوله: ﴿**وَنُذُرِ**﴾ جمع نذير، بمعنى: فكيف كان عذابي وعاقبة إنذاري، وأن النذير تكرر لهم حتى باغتهم العذاب.

وشوَّقهم الله تعالى في كتابه العزيز في السورة لسماع المزيد من أخبار قصص هود وصالح ونوح ولوط - عليهم السلام - وتكراره هذه الآية بعد كل قصة؛ تنبيه على أن إيراده القصص إنما هو للوعظ والتذكار، لا لمجرد السماع والتلذُّذ، بل للاعتبار والانزجار عن مثل فعلهم. قال ابن كثير -رحمه الله -:

٨- «**أي: كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذَّب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نُذُري، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر**».

وقد وصف الشيخ السعدي – رحمه الله – عذابهم بقوله:

٩- «**كان والله العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة**».

وعطف الله تعالى على القصص المشهورة عند العرب بقصة فرعون المشهورة عند أهل الكتاب فقال في السورة:

١٠- ﴿**وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢)**﴾

ولَمَّا أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالإنذار والتبليغ، كما قال في مطلع سورة الأعراف:

١١- ﴿**المص (١) كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)**﴾

أمر الناس بقبول الحق ومتابعته، أمرهم أن يكونوا على ملة الإسلام ونهاهم عن اتباع شياطين الجن والإنس الذين يحملون الناس على عبادة الأوثان، ويحملونهم على اتباع الأهواء والبدع، فقال بعدها:

١٢- ﴿**اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ . . (٣)**﴾

ولأن الذي نزل من الله تعالى إنذار وذكرى، فقد شرح الله تعالى في سورة الأعراف خطورة عدم اتباع الحق، فالواجب اتباع القرآن العظيم وما نزل فيه من توحيد الله وإخلاص العبادة له، واتباع السُّنَّة، وحذَّرهم أن يتَّخذوا غير الله تعالى أولياء يطيعونهم في معصية الله عز وجل. لذا فإنه:

١٣- «**قد أَعذَرَ مَنْ أَنْذَرَ**».

أي: من حذَّرك ما يحل بك فقد بالغ في العذر، كما قال تعالى في السورة:

١٤- ﴿**وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ (٤)**﴾

﴿**وَكَمْ**﴾ للتكثير والمبالغة. إنها كثيرة تلك القرى التي ﴿**أَهْلَكْنَاهَا**﴾ بما لنا من العظمة بسبب ظلم أهلها، فخوَّف الله تعالى في الآية الكريمة بأنه أهلك

كثيراً من القرى بسبب تكذيبهم الرسل، فما الذي كان من أهل الضلالة اتجاه دعوة الحق حتى استوجبوا الذلَّه؟

الجواب: إنهم كذَّبوا الأنبياء والرسل، وخالفوا الكتاب والسُّنَّة، وأشركوا بالله تعالى، واختلفوا مع أهل الحق، وحاربوا الدعوة السلفية، وجعلوا منهاج النبوة والسلف وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون !!، قال الشيخ السعدي -رحمه الله-:

١٥- «**فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي**».

وقال البقاعي -رحمه الله-:

١٦- «**فلا تغتروا بأوليائكم من دونه وأنتم عالمون بأنهم لم ينفعوا**».

فلمّا اغتروا بأوليائهم من دون الله تعالى، واتبعوا أهواءهم، قال تعالى: ﴿**فَجَاءَهَا**﴾ الفاء للتعقيب دلالة على عدم التريث، ﴿**بَأْسُنَا**﴾ للتفصيل والتفسير، قال ابن كثير -رحمه الله-:

١٧- «**فأعقبهم ذلك خِزْيُ الدنيا موصولاً بذُلِّ الآخرة**».

وأخبر سبحانه وتعالى أن كثيراً من القرى الظالمة نزل العذاب على بعضها ﴿**بَيَاتًا**﴾ أي: في وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لقوم لوط، ونزل على بعضها و﴿**هُمْ قَائِلُونَ**﴾ أي: في وقت استراحة أهلها بالنهار كما حصل لقوم شعيب. قال البقاعي -رحمه الله-:

١٨- «**وكان أفحش البأس وأشدَّه ما كان في وقت الراحة والدِّعة والغفلة**».

ونظيره قول الله تعالى:

١٩- ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)**﴾ [سورة القصص]

وقوله تعالى:

٢٠- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠)﴾ [سورة محمد]

وقوله تعالى:

٢١- ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥)﴾ [سورة الحج]

وعندما باغتهم العذاب الشديد في وقت اطمئنانهم وراحتهم انقطعت دعاوى الباطل كلّها عندهم، كما قال تعالى في سورة الأعراف:

٢٢- ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥)﴾

قال ابن كثير -رحمه الله-:

٢٣- «**أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا**».

فلم يكن لهم ﴿**إِلاَّ أَنْ قَالُوا**﴾ معترفين بجرائمهم على سبيل التحسّر والندم والطمع في الخلاص ﴿**إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ يعني: مجرمين:

لأنهم كافرون أو مشركون.

أو لأنهم عصوا.

أو لأنهم خرسوا فلم يأمروا بمعروف ولم ينهوا عن منكر.

أو لأنهم أكلوا حقوق بعضهم البعض.

أو أكلوا أموال الوقف بالباطل.

أو لأنهم صدّوا عن سبيل الله.

فأقرّوا في النهاية بذنوبهم وإساءتهم، فهم في الجملة مجرمون، قال الطبري -رحمه الله-:

٢٤- «**فلم يكن دعوى أهل القرية التي أهلكناها، إذ جاءهم بأسنا وسطوتُنا بياتًا**

أو هم قائلون، إلا اعترافهم على أنفسهم بأنهم كانوا إلى أنفسهم مسيئين، وبربهم آثمين، ولأمره ونهيه مخالفين».

فهذا اعتراف منهم بممارستهم للظلم ورعايتهم له.

٢٥- **(والظلم ثلاثة)**

كما قال النبي ﷺ:

٢٦- «**فظلم لا يتركه الله، وظلم يغفر، وظلم لا يغفر، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك لا يغفره الله، وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد فيقتص الله بعضهم من بعض**»[1].

وقال ﷺ:

٢٧- «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**»[2].

ومن ظلم الظالمين ادّعاؤهم كل شيء!!، ادعاءات متتالية ـ يشرّقون فيها ويغرّبون ـ يريدون فيها إثبات باطلهم مهما كلَّفهم الثمن!! إلاَّ أن تكون لهم جلسة واحدة ـ هي الأخيرة في الدنيا ـ يعترفون فيها أنهم على ضلال، أو يعترفون فيها أنهم لصوص أكلوا حقوق الناس والوقف، أو يعترفون فيها أنهم يصدّون عن سبيل الله، أو يقرّون أنهم مشركون بالله تعالى.

فمتى تكون هذه الجلسة التي تنتهي في أروقة عدلها وإنصافها ضلالهم ودجلهم؟ الجواب:

حين يرون فيه العذاب عياناً! أو حين ينزل فيهم بأس الله!

فيكون الحق قد غرز في عيونهم حقيقة مُرَّة؛ لا يستطيعون دفعها بالندم والتوبة. كما قال البغوي -رحمه الله-:

٢٨- «**وكان حاصل أمرهم الاعتراف بالجناية حين لا ينفع الاعتراف**».

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في "مسنده"، وهو في "السلسلة الصحيحة"(١٩٢٧).

(٢) أخرجه الإمام مسلم، وأحمد، وغيرهما وهو في "السلسلة الصحيحة"(٨٥٨).

كان الأجدر بهؤلاء الحمقى الظلمة أن يتوبوا من ذنوبهم عندما جاءتهم النذر، فعليهم أن يراجعوا أنفسهم ـ الآن ـ قبل العذاب. لعلَّهم يوفّقون للتوبة!!

لقد كثرت خطاياهم وذنوبهم، فلم تتوقف جرائمهم عند المعاصي، بل تجاوزتها إلى أشدِّها من الكذب، والنفاق، والتلفيق، والاحتيال، وصناعة الاختلاف والتفرق، والخوض في الباطل، ومحاربة دعوة الحق واهلها!! والتشجيع على الشرك !! وتمييع الدين !! وقيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال !! قال الطبري -رحمه الله-:

٢٩- «**في هذه الآية الدلالة الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ من قوله:**

٣٠- «**لن يهلك الناس حتى يَعذِروا ـ أو يُعذِروا ـ من أنفسهم**»[١].

قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه:

٣١- «**قلت لعبد الملك: كيف يكون ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآية: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾**

ومعناه: لن يهلك الناس (**حتى يَعذِروا من أنفسهم**) يعني: حتى يَعذِروا من يعذِّبهم فيكون لمن يعذِّبهم العذر، أو (**حتى يُعذِروا من أنفسهم**) يعني: تكثر ذنوبهم وعيوبهم فكأنهم سلبت أعذارهم بكثرة اقتراف الذنوب فيستوجبوا العقوبة. قال الحربي -رحمه الله-:

٣٢- «**تَكْثُرُ ذُنُوبُهُمْ فَيَعْذِرُوا مَنْ أَهْلَكَهُمْ بِالعُقُوبَةِ**»[٢].

وفي «تهذيب اللغة» للأزهري -رحمه الله-:

٣٣- «**إذا أذنبوا ذنوباً يكون لمن يعاقبهم عذر في ذلك لاستحقاقهم**».

---

(١) "صحيح سنن أبي داود"(٤٣٤٧).

(٢) "غريب الحديث".

وقال البغوي -رحمه الله-:

٣٤- «**أي: يكثروا ذنوبهم، ويستوجبوا العقوبة، فيكون لمن يعذبهم العذر**»[١].

وقال الأزدي الحميدي -رحمه الله-:

٣٥- «**أي: حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم فتقوم الحجة عليهم ويكون العذر واضحاً لمن يعاقبهم**»[٢].

وقال البيضاوي -رحمه الله-:

٣٦- «**يقال أعذَرَ فلان إذا كثرت ذنوبه فكأنه سُلب عُذره بكثرة اقتراف الذنوب، أو مِن أُعذر أي صار ذا عذر، والمراد: حتى يذنبوا فيُعذِرون أنفسهم ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً**»[٣].

واستحسن الطيبي -رحمه الله- قول من قال: (**فيُعذِرون أنفسهم**) فقال:

٣٧- «**أنسب بباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كأن الناهي ينكر عليه ذنبه، وهو يتبرأ من الذنب ويعذر لنفسه ولإقدامه عليه**»[٤].

ونظير ما تقدَّم قوله تعالى في سورة «الأنبياء»:

٣٨- ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)**

فقوله تعالى: ﴿**فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ**﴾ أي: لم يزالوا يقولون: ﴿**يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ يكررون نداءهم باعترافهم أنهم كانوا ظالمين، وبيَّن الله

---

(١) "شرح السنة"(٣٤٩/١٤).

(٢) "تفسير غريب ما في الصحيحين".

(٣) "فيض القدير"(٣٨٧/٥).

(٤) "مرقاة المفاتيح"(٢٧/١٥).

تعالى في سورة «غافر» أن نداءهم كان بالإيمان بالله مستغيثين من العذاب كما قال:

٣٩- ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤)﴾

ونفى الله تعالى قبول إيمانهم وتوبتهم حين نزل العذاب بهم فقال:

٤٠- ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥)﴾

لأن إيمانهم اضطراري لجئوا إليه من غير اختيار منهم، فهذا اللون من الإيمان لا ينفع؛ على خلاف لو أنَّ إيمانهم كان على الحقيقة لتاب الله عليهم، بل إن هؤلاء لو أعطيت لهم الفرصة برفع العذاب عنهم مرة تلو مرة لرجعوا إلى كفرهم كما قال تعالى في سورة «الأنعام»:

٤١- ﴿. . . وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾

ونظيره قوله تعالى في سورة «المؤمنون»:

٤٢- ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾

ويحاول الكذبة على الله أن يعلّلوا افتراءاتهم وعنادهم وتعنتهم بتعليلات كثيرة لا فائدة من طرحها ومنها - على سبيل المثال - كما قصَّ الله عنهم:

٤٣- ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (٧)﴾ [سورة الفرقان]

يطلبون مَلَك يشهد على النبي ﷺ بالصدق!، ويعينه على التبليغ!، ويشاركه في الإنذار!، وقد ردَّ الله تعالى استهزاءهم بقوله في السورة:

٤٤- ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ . . (٢٢)﴾

ومعلوم أن محمداً ﷺ كاف في الحجَّة والبيان والإنذار، لأن الملك لن يغيِّر من حقيقة الرسالة شيئاً، لكن الكفّار يتقدَّمون دوماً بمطالب لا طعم لها، بل تكشف عمّا في مكنونهم من الحقد والكذب، وردَّ الله تعالى عليهم في

السورة بقوله:

٤٥- ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾

أي: بما لنا من العظمة شئنا أن نحمِّلك أعباء الدَّعوة، ثم قال تعالى في السورة:

٤٦- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦)﴾

وقال تعالى في سورة «فاطر»:

٤٧- ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا. . (٢٤)﴾

ونظيره قوله تعالى في سورة «سبأ»:

٤٨- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . . (٢٨)﴾

ونظير ما تقدَّم قوله تعالى في سورة «الكهف»:

٤٩- ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦)﴾

والله عز وجل عرض علينا في الكتاب العزيز صوراً عديدة من عذاب المنذرين في الدنيا فقوم لوط - على سبيل المثال - بيَّن الله تعالى عاقبتهم في سورة الأعراف فقال:

٥٠- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)﴾

ولم يبيِّن الله عز وجل هذا المطر ما هو، ولكنه بيَّنه في مواضع أخر ووصفه بأنه مطر السوء لا رحمة فيه فقال في سورة «الفرقان»:

٥١- ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ. . (٤٠)﴾

وأنه مطر حجارة أهلكهم الله بها كما قال:

٥٢- ﴿. . . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤)﴾ [سورة الحجر]

وأشار إلى أن السجِّيل: الطين فقال:

٥٣- ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣)﴾ [سورة الذاريات]

فقوله تعالى في سورتي «الشعراء» و«النمل»:

٥٤- ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾

لأنهم أنذروا فلم يقبلوا الإنذار، قال ابن كثير -رحمه الله-:

٥٥- «**أي: الذين قامت عليهم الحجة، ووصل إليهم الإنذار، فخالفوا الرسول وكذَّبوه، وَهمُّوا بإخراجه من بينهم**».

وقد دفع الله تعالى بمن قرأ الأحداث الماضية بعناية بالغة إلى مشاهدة النتائج ليعتبر، فالقرآن ليس مجرد كتاب للقراءة والتلاوة، بل هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلا بد من قراءته وتدبُّره بعناية لأخذ العبرة، لأن الأحداث التي وقعت ستتكرر عبر التاريخ إلى قيام الساعة، فالأمم كلها تخضع لابتلاءات متشابهة في عبادتها لله عز وجل. لذا فإن الله تعالى لا يقف بإيراده العبرة عند حدِّ النظر والمشاهدة لها، بل يدفع بها ليلمس الواقعي نتائج الحدث فيعتبر كما قال في سورة «الأعراف»:

٥٦- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾

فقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها، ظلماً منهم وعناداً، بعد أن قامت عليهم الحجج والآيات والدلالات وصاروا منها على فهم وبصيرة، وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، فلما كفروا بها جعلوا موضع ما يجب من الإيمان الكفر فقيل: ظلموا بها، بمعنى كفروا بها. ومن فسادهم أمرهم الناس بالكفر والشرك كما قال تعالى في سورة «النمل»:

٥٧- ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)﴾

وقال في سورة «يونس»:

٥٨- ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)﴾

وقال في السورة:

٥٩- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)﴾

فإن هؤلاء المكذبين المستهزئين بالدعوة السلفية دعوة الأنبياء والرسل لقّنوا دروساً عبر التاريخ الإنساني وصاروا فيها عبرة لمن خلفهم كما قال تعالى:

٦٠- ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(١١)﴾ [سورة الأنعام]

فهل من معتبر؟ والمعتبر من يخاف الإنذار ليكون من عباد الله المخلصين الذين أخلصوا دينهم لله. كما قال تعالى في سورة «الصافات»:

٦١- ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)﴾

أما الحمقى الضالون التائهون المُنْذَرون فلا يعتبِرون لأنهم أهملوا الإنذار وعموا عنه فلا بصيرة عندهم بعد أن اختاروا بمحض إرادتهم الكفر والضلال، فكل من بلغته الحجة وعلم الله تعالى أن الحجة قامت عليه وأنه أبصر الحق وعلمه فسخر منه وكذَّب به وبأهله، فلا يمكنه أن يبصره أو يهتدي إليه بعد ذلك، جزاءً وفاقاً، كما قال تعالى في وصف قوم نوح:

٦٢- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)﴾ [سورة الأعراف]

فكذَّبوه لأنهم: مشركون أو منافقون أو متكبِّرون، فهم في أصلهم: مجرمون، وفاسدون، وظالمون، وماكرون، وقد توعَّد الله تعالى كل من

أنذر ولم ينخلع عن ضلاله بالعذاب في الدنيا والآخرة كما قال تعالى في سورة «الملك»:

٦٣- ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)﴾

وقال في سورة «الروم»:

٦٤- ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)﴾.

صدر للمؤلف:

- إنارة سبل الأنام بإفشاء السلام .
- اقرأ ثم اكتب وصيّتك .
- دروس تبسيط العقيدة الإسلامية .
- إتحاف الأنام في فضائل المسجد الأقصى والشام .
- النقد والإحصا للأحاديث الضعيفة والموضوعة في فضل القدس والمسجد الأقصى .
- تبصير المسلمين إلى الصراط المستقيم .
- كيف نفهم وحدة الصف من سورة «الصف» .
- وحدة الصف من تسوية الصف .
- من سير الصالحين : قصة أبي القرن .
- زمن الهرج باختصار : القاتل والمقتول في النار .
- العدل والإنصاف من خصائص أهل السُّنّة والجماعة .
- نور على الدرب «كلمات في الدعوة والمنهاج» .
- التفسير السلفي للقرآن الكريم «تفسير عشر سور من القرآن حسب النزول» .
- السلفيون في بيت المقدس ـ اليوم ـ هم الطائفة المنصورة .
- سيرة إبراهيم الخليل في القرآن المجيد والأحاديث الصحيحة .
- دعوتنا سلفية لا وهّابيّة .
- النور المبين في الخبر الأمين تفسير قوله تعالى : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ .
- ابتلاء الناس بالدين في ضوء قول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ .
- الجزء الأول والثاني من كتاب القرآن في منهاج الطائفة المنصورة «حلقات علمية في تفسير القرآن على منهاج النبوَّة والسَّلَف .
- ومقالات أخرى .